قصص

الأَصْحَابُ فِي الْقُرْآنِ

إعداد : إبراهيم البحيري

رسوم : هشام حسين

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
07 230195 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
2015 - 1436 هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

الْمُحْتَوَيَاتُ

أَصْحَابُ السَّفِينَةِ

أَوَّلُ أَصْنَامٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ... 6
أَوَّلُ رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ... 10
الْفُلْكُ الْعَظِيمُ ... 14
نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكُ الْكَافِرِينَ ... 18

أَصْحَابُ الْحِجْرِ

مَنَازِلُ ثَمُودَ ... 22
صَالِحٌ عليه السلام ... 25
نَاقَةُ اللهِ ... 29
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ... 32

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ / أَصْحَابُ مَدْيَنَ

عِبَدَةُ الْأَشْجَارِ ... 36
سَحَابَةُ الْعَذَابِ ... 41

أَصْحَابُ السَّبْتِ

يَوْمُ السَّبْتِ ... 46
مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللهِ ... 51
عِقَابٌ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثِيلٌ ... 54

أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ

الْقَرْيَةُ الظَّالِمُ أَهْلُهَا ... 58
الرُّسُلُ الثَّلَاثَةُ ... 62
الصَّيْحَةُ الْقَاتِلَةُ ... 65

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ

الرَّجُلُ الصَّالِحُ ... 70
الْأَبْنَاءُ الْجَاحِدُونَ ... 74
الْجَنَّةُ الْمُحْتَرِقَةُ ... 78

أَصْحَابُ الْكَهْفِ

فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ... 82
أَطْوَلُ نَوْمَةٍ فِي التَّارِيخِ ... 88
إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... 92

أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ

مَلِكٌ يَدَّعِي الْأُلُوهِيَّةَ ... 98
الْغُلَامُ الدَّاعِيَةُ ... 102
مَلِكٌ بِلَا شَعْبٍ ... 107

أَصْحَابُ الْفِيلِ

أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ ... 114
الطَّيْرُ الْأَبَابِيلُ ... 118
أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ ... 124

أَصْحَابُ السَّفِينَةِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الْعَنْكَبُوت: 14، 15)

أَوَّلُ أَصْنَامٍ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ

أَتَعْلَمُونَ مَا هِيَ أَوَّلُ أَصْنَامٍ وُضِعَتْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ؟ كَمْ كَانَ عَدَدُهَا؟ وَمَاذَا كَانَتْ أَسْمَاؤُهَا؟ مَنِ الَّذِينَ صَنَعُوهَا؟ وَلِمَاذَا صَنَعُوهَا؟

سَتُخْبِرُكُمُ السُّطُورُ الْقَادِمَةُ بِإِجَابَاتِ كُلِّ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ وَأُخْرَى غَيْرِهَا، فَمَا عَلَيْكُمْ إِلَّا أَنْ تَفْتَحُوا لَهَا قُلُوبَكُمْ وَعُقُولَكُمْ؛ حَتَّى تَعْرِفُوا كَيْفَ اسْتَطَاعَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ أَنْ يُضِلَّ الْإِنْسَانَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْمُنْعِمِ الْمَنَّانِ، وَكَيْفَ زَيَّنَ لَهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ.

لَقَدْ عَاشَتِ الْبَشَرِيَّةُ تَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا، كَمَا عَلَّمَهُمْ أَبُوهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَعْوَامًا عَدِيدَةً، وَأَجْيَالًا مُتَعَاقِبَةً كَثِيرَةً حَتَّى اسْتَطَاعَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ أَنْ يَخْدَعَ أَحْفَادَهُمْ، وَيُزَيِّنَ لَهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى فِي عِبَادَتِهِ. فَكَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟

لَقَدِ اسْتَغَلَّ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ حُبَّ بَنِي آدَمَ لِلدِّينِ، وَتَقْدِيرَهُمْ وَتَعْظِيمَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، وَانْتَهَزَ فُرْصَةَ حُزْنِهِمُ الشَّدِيدِ عَلَى وَفَاةِ بَعْضِ الْأَتْقِيَاءِ الصَّالِحِينَ؛ فَتَحَدَّثَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَحْزُونِينَ نَاصِحًا وَوَاعِظًا:

- لَكُمْ كُلُّ الْحَقِّ أَنْ تَحْزَنُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ، فَقَدْ كَانُوا صُورَةً حَيَّةً لِتَعَالِيمِ الدِّينِ، وَكَانُوا نِعْمَ الْقُدْوَةُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ الْفَوْزَ بِجَنَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. إِيَّاكُمْ أَنْ تَنْسَوْهُمْ وَأَنْ تَخْلُوَ أَذْهَانُكُمْ مِنْ ذِكْرِهِمْ؛ فَإِنَّ تَذَكُّرَهُمْ يُعِينُكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ!

ثُمَّ وَسْوَسَ لِبَعْضِ قَلِيلِي الْعِلْمِ وَضِعَافِ الْإِيمَانِ قَائِلًا:

- إِنَّ إِيمَانَكُمْ بِاللهِ لَنْ يَزْدَادَ، وَصِلَتَكُمْ بِهِ لَنْ تَقْوَى إِلَّا عَنْ طَرِيقِ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ رَحَلُوا عَنِ الدُّنْيَا! فَلَا بُدَّ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ صُوَرًا وَتَمَاثِيلَ بِهَيْئَاتِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، وَتُسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، وَتَنْصِبُوهَا فِي مَجَالِسِكُمْ وَأَنْدِيَتِكُمْ وَبُيُوتِكُمْ؛ حَتَّى تُذَكِّرَكُمْ دَائِمًا بِطَاعَةِ اللهِ، وَتَحُثَّكُمْ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ!

هَكَذَا وَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ.. دَخَلَ لَهُمْ مِنْ بَابِ النَّاصِحِ الْأَمِينِ الْحَرِيصِ عَلَى مَنْفَعَتِهِمْ، وَاخْتَارَ لَهُمْ خَمْسَةً مِنَ الصَّالِحِينَ الرَّاحِلِينَ الَّذِينَ لَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ مِنْهُمْ عَلَى صَلَاحِهِمْ وَوَرَعِهِمْ، وَشِدَّةِ تَقْوَاهُمْ وَزُهْدِهِمْ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ وَصَنَعُوا لَهُمْ تَمَاثِيلَ عَلَى هَيْئَاتِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ، وَنَصَبُوهَا فِي مَجَالِسِهِمْ وَأَنْدِيَتِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أَصْحَابِهَا الصَّالِحِينَ، وَكَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ هِيَ: وَدٌّ، وَسُوَاعٌ، وَيَغُوثُ، وَيَعُوقُ، وَنَسْرٌ.

ثُمَّ انْتَقَلَ الشَّيْطَانُ خُطْوَةً أُخْرَى، فَقَالَ لِهَؤُلَاءِ الْمَخْدُوعِينَ:

- إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْصُوا اللهَ أَمَامَ تَمَاثِيلِ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ، فَإِذَا أَرَدْتُمُ الْمَعْصِيَةَ فَاسْتَخْفُوا مِنْهُمْ؛ حَتَّى لَا يَغْضَبُوا عَلَيْكُمْ، وَأَظْهِرُوا أَمَامَهُمْ دَائِمًا الْعِبَادَةَ وَالصَّلَاحَ؛ حَتَّى تَنَالَكُمْ شَفَاعَتُهُمْ.

فَاسْتَجَابُوا لَهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَصَارَ أَحَدُهُمْ إِذَا رَأَى التِّمْثَالَ الَّذِي صَنَعَهُ بِيَدَيْهِ طَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَحَرَّكَ لِسَانَهُ بِذِكْرِ اللهِ وَتَسْبِيحِهِ! وَإِذَا حَدَّثَتْ أَحَدَهُمْ نَفْسُهُ بِمَعْصِيَةٍ اجْتَهَدَ أَنْ يَفْعَلَهَا فِي مَكَانٍ لَيْسَ بِهِ تِمْثَالٌ أَوْ صَنَمٌ!!

وَهَكَذَا صَارَ خَوْفُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ الَّذِي يَرَاهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، وَصَارَتْ عِبَادَتُهُمُ ابْتِغَاءَ شَفَاعَةِ وَرِضَا الْأَصْنَامِ، وَلَيْسَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ! وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ بِعَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ شِرْكًا خَفِيًّا، لَكِنَّهُ فِي النِّهَايَةِ يَسْتَوِي مَعَ شِرْكِ أَبْنَائِهِمُ الْأَكْبَرِ

وَالصَّرِيحِ؛ حَيْثُ اسْتَطَاعَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُقْنِعَ الْأَبْنَاءَ بَعْدَ مَوْتِ آبَائِهِمْ بِأَنَّ آبَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُعَظِّمُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ إِلَّا لِأَنَّهَا آلِهَةٌ، وَقَالَ لَهُمْ:

- أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ عِبَادَاتِهِمْ وَطَاعَاتِهِمْ كَانَتْ أَمَامَهَا وَتَحْتَ أَقْدَامِهَا؟! كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْصُوا اللهَ أَمَامَهَا قَطُّ، وَلَمْ يَفْعَلُوا عِنْدَهَا سَيِّئَةً تُذْكَرُ! وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهَا آلِهَةٌ تُبْصِرُ وَتَسْمَعُ وَتَضُرُّ وَتَنْفَعُ!

فَادْعُوهَا وَاعْبُدُوهَا وَقَدِّمُوا لَهَا الْقَرَابِينَ، وَاسْأَلُوهَا كُلَّ مَا تُرِيدُونَ، فَإِنَّهَا تُعْطِي وَتَمْنَعُ!

فَاسْتَجَابَ الْأَبْنَاءُ لِنِدَاءِ الشَّيْطَانِ كَمَا اسْتَجَابَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ. وَهَكَذَا صَارَتِ الْأَصْنَامُ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَانْتَشَرَ الشِّرْكُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعَمَّ الْكُفْرُ كُلَّ أَنْحَاءِ الْأَرْضِ الْمَعْمُورَةِ يَوْمَئِذٍ. وَلَكِنَّ اللهَ الرَّحِيمَ الرَّحْمَنَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ؛ لِذَلِكَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَوَّلَ

رَسُـولٍ دَعَـا النَّاسَ إِلَى تَرْكِ عِبَـادَةِ الْأَصْنَامِ وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَـرِيكَ لَهُ.

فَمَنْ هُوَ هَذَا الرَّسُولُ؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَ أَهْلُ الْأَرْضِ دَعْوَتَهُ؟

هَذَا مَا سَنَعْرِفُهُ فِي الْقِصَّةِ الْقَادِمَةِ.

أَوَّلُ رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ

كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلَ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ.

فَنَفَّذَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَ رَبِّهِ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ:

- يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَاتْرُكُوا عِبَادَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ. يَا قَوْمِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِي، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ مِنْ قَوْمِهِ:

- أَتَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرُكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَنَعْبُدَ إِلَهًا وَاحِدًا؟! إِنَّكَ إِذَنْ لَمَجْنُونٌ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ!

فَرَدَّ عَلَيْهِمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا:

- لَسْتُ بِمَجْنُونٍ، وَلَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، أُبَلِّغُكُمْ مَا أَمَرَنِي بِهِ أَنِ اتْرُكُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَاعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ. فَأَطِيعُونِي فَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ.

فَآمَنَ بِهِ بَعْضُ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ مِنْ قَوْمِهِ، فَخَافَ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ عَلَى مَكَانَتِهِمْ وَسِيَادَتِهِمْ، فَاتَّهَمُوا نُوحًا بِالْكَذِبِ، وَقَالُوا لِلنَّاسِ:

- إِنَّ نُوحًا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَهُ السِّيَادَةُ عَلَيْكُمْ، فَاحْذَرُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَإِنَّ اللهَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْكُمْ رَسُولًا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ.

وَهَكَذَا السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.. يَحْرِصُونَ عَلَى مَكَانَتِهِمْ، وَيَخَافُونَ عَلَى وَجَاهَتِهِمْ وَسِيَادَتِهِمْ، فَيَرْفُضُونَ الْحَقَّ وَيُحَارِبُونَهُ! وَمَا كَانَ اتِّبَاعُهُمُ الْحَقَّ لِيَسْلُبَهُمْ مَكَانَتَهُمْ أَوْ يَحْرِمَهُمْ وَجَاهَتَهُمْ، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي سَيْطَرَ عَلَيْهِمْ، وَالْعِنَادُ الَّذِي مَلَأَ نُفُوسَهُمْ، وَالْكِبْرُ الَّذِي تَشَبَّعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَلِذَلِكَ قَالُوا لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- أَتُرِيدُنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِدِينٍ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ إِلَّا الضُّعَفَاءُ وَالْفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَا قِيمَةَ لَهُمْ وَلَا مَكَانَةَ؟!

وَلَكِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاطَبَهُمْ بِتَلَطُّفٍ وَرِفْقٍ قَائِلًا:

- يَا قَوْمِ.. إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.. لَمْ أَدَّعِ يَوْمًا أَنَّنِي مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ أَنَّ عِنْدِي خَزَائِنَ اللهِ، أَوْ أَنَّنِي أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ دَعْوَتِي مُلْكًا أَوْ سُلْطَانًا، وَلَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ مَالًا أَوْ أَجْرًا عَلَى مَا أَقُومُ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَةِ اللهِ إِلَيْكُمْ، فَأَجْرِي عِنْدَ اللهِ وَحْدَهُ. أَمَّا مَنْ آمَنَ بِي مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، فَاللهُ وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَنْفُسِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي سَوْفَ يُثِيبُهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ.

فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا أَنِ اتَّبَعُوا سَادَتَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمْ، وَرَفَضُوا دَعْوَةَ نُوحٍ، وَتَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَلَّا يَتْرُكُوا عِبَادَةَ آلِهَتِهِمْ، وَأَمَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَلَّا يَسْتَمِعُوا لِدَعْوَةِ نُوحٍ، وَلَا يُنْصِتُوا لِكَلَامِهِ، فَكَانَ كُلَّمَا دَعَاهُمْ وَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، وَإِذَا أَلَحَّ عَلَيْهِمْ غَطُّوا وُجُوهَهُمْ بِثِيَابِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَرَوْهُ!!

وَلَكِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ، وَاسْتَمَرَّ يَدْعُوهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ، وَيُكَلِّمُهُمْ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَطُرُقَاتِهِمْ، لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ.. وَقْتُهُ كُلُّهُ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَحَيَاتُهُ كُلُّهَا لِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ اللهِ.

وَقَدْ ظَلَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو قَوْمَهُ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا.. يَدْعُوهُمْ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ تَارَةً، وَيُعَنِّفُهُمْ وَيَلُومُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، يُذَكِّرُهُمْ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ مَرَّةً، وَيُخَوِّفُهُمْ مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ إِنْ ظَلُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، حَتَّى ضَجُّوا مِنْهُ وَهَدَّدُوهُ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ بِالطَّرْدِ وَالرَّجْمِ وَالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَيَكُفَّ عَنْ تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ! ثُمَّ إِنَّهُمْ قَالُوا لَهُ:

- لَقَدْ أَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، وَأَطَلْتَ نِقَاشَنَا، وَأَفْرَطْتَ فِي تَحْذِيرِنَا مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ، وَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ أَبَدًا! فَأْتِنَا بِهَذَا الْعَذَابِ الَّذِي تُخَوِّفُنَا بِهِ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا!

فَقَالَ لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحُزْنُ يَعْصِرُ فُؤَادَهُ:

- إِنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَكُمْ بِهَذَا الْعَذَابِ إِنْ شَاءَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. لَقَدِ اجْتَهَدْتُ فِي نُصْحِكُمْ، وَأَخْلَصْتُ فِي تَبْلِيغِكُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ، فَمَاذَا أَفْعَلُ لَكُمْ غَيْرَ ذَلِكَ؟! إِنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي وَيُضِلُّ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا.

ثُمَّ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَئِسَ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ وَإِيمَانِهِمْ، فَدَعَا اللهَ عَلَيْهِمْ ـ كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ـ قَائِلًا:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (نُوح: 26 ، 27)

فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ أَلَّا تَدْعُوَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ، فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ أُغْلِقَتْ عَلَى الشِّرْكِ، وَلَنْ تُفْتَحَ لِلْإِيمَانِ أَبَدًا، فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَغْتَمَّ بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَإِنَّ الْعَذَابَ آتِيهِمْ لَا مَحَالَةَ.

ثُمَّ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَمْرًا آخَرَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَنْفِيذِهِ؛ لِأَنَّ بِوَاسِطَتِهِ سَتَكُونُ نَجَاتُهُ وَنَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي سَيَعُمُّ الْكَافِرِينَ. فَيَا تُرَى مَا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ؟

هَيَّا لِنَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ فِي الْقِصَّةِ التَّالِيَةِ.

الْفُلْكُ الْعَظِيمُ

اسْتَجَابَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دُعَاءَ نَبِيِّهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يُخَاطِبَهُ مَرَّةً أُخْرَى فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ؛ فَلَا يَدْعُو لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ، وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيُعَمِّمُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ لَنْ يَتْرُكَ مِنْهُمْ بَشَرًا، وَلَنْ يُبْقِيَ لَهُمْ أَثَرًا! سَيُغْرِقُهُمْ بِطُوفَانٍ عَظِيمٍ يُنَظِّفُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَمِنْ شِرْكِهِمْ. كَمَا أَمَرَهُ أَنْ يَصْنَعَ سَفِينَةً ضَخْمَةً تَكُونُ سَبَبًا لِنَجَاتِهِ وَنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ.

فَاسْتَجَابَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَأَخَذَ يَزْرَعُ الْأَشْجَارَ الَّتِي سَيَأْخُذُ مِنْهَا خَشَبَ السَّفِينَةِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ انْتَظَرَ مِئَةَ سَنَةٍ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِقَطْعِهَا، ثُمَّ عَلَّمَهُ اللهُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كَيْفَ يَصْنَعُ مِنْهَا أَلْوَاحًا، وَكَيْفَ يُجَهِّزُهَا لِتَكُونَ صَالِحَةً وَمُنَاسِبَةً لِصِنَاعَةِ الْفُلْكِ الْعَظِيمِ. وَالْفُلْكُ الْعَظِيمُ تَعْنِي السَّفِينَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي لَا مَثِيلَ لَهَا.

ظَلَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ هَذَا الْفُلْكَ الْعَظِيمَ طِيلَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.. لَمْ يَكُفَّ خِلَالَهَا عَنِ الْعَمَلِ، وَقَدْ أَمَرَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَجْعَلَهَا ثَلَاثَةَ طَوَابِقَ، ارْتِفَاعُ كُلِّ طَابَقٍ سِتَّةُ أَمْتَارٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْعَلَ عَرْضَهَا ـ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ ـ ثَلَاثِينَ مِتْرًا وَطُولَهَا مِئَةً وَثَمَانِينَ مِتْرًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَطْلِيَ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا بِالْقَارِ؛ حَتَّى لَا يَتَسَرَّبَ إِلَيْهَا الْمَاءُ مِنْ جَوَانِبِهَا وَلَا مِنْ أَسْفَلِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهَا فِي مُقَدِّمَتِهَا صَدْرًا يَشُقُّ الْمَاءَ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهَا غِطَاءً مِنْ فَوْقِهَا يُطْبِقُ عَلَيْهَا،

فَيُغَطِّيهَا تَمَامًا وَيَحْمِيهَا وَأَصْحَابَهَا مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ الْمُنْهَمِرِ.

حَقًّا.. لَقَدْ كَانَتْ سَفِينَةً ضَخْمَةً لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مَثِيلٌ!

كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ سَفِينَتَهُ عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ قَوْمِهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ قَدْ كَفَّ عَنْ دَعْوَةِ قَوْمِهِ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِ رَبِّهِ، إِلَّا أَنَّ قَوْمَهُ لَمْ يَكُفُّوا عَنْ إِيذَائِهِ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ، فَقَدْ كَانُوا كُلَّمَا مَرُّوا عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ السَّفِينَةَ سَخِرُوا مِنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ضَاحِكِينَ مُسْتَهْزِئِينَ:

- لَقَدْ جُنَّ نُوحٌ وَفَقَدَ عَقْلَهُ!! يَصْنَعُ سَفِينَةً فِي الصَّحْرَاءِ! مِنْ أَيْنَ سَيَأْتِي لَهَا بِالْمَاءِ؟! أَمْ أَنَّهُ سَيَطِيرُ بِهَا فِي الْهَوَاءِ؟!

ثُمَّ تَتَعَالَى ضَحِكَاتُهُمْ وَقَهْقَهَاتُهُمْ ، ثُمَّ يَسْأَلُونَهُ سَاخِرِينَ:

- أَيْنَ سَتُبْحِرُ بِسَفِينَتِكَ يَا نُوحُ؟! هَلْ سَتُبْحِرُ بِهَا فِي الرِّمَالِ؟!

فَيُوَاصِلُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمَلَهُ وَهُوَ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (هُود: 38، 39)

وَمَا إِنْ أَتَمَّ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ صُنْعَ الْفُلْكِ الْعَظِيمِ، حَتَّى أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَلَامَةَ الطُّوفَانِ أَنْ يَنْبُعَ الْمَاءُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْأَفْرَانِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا النَّارُ، فَإِذَا رَأَيْتَ هَذِهِ الْعَلَامَةَ فَاحْمِلْ فِي السَّفِينَةِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ ذَكَرًا وَأُنْثَى، وَاحْمِلْ أَهْلَ بَيْتِكَ إِلَّا الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ، وَاحْمِلْ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِكَ، فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ الَّذِينَ كُتِبَتْ لَهُمُ النَّجَاةُ.

وَقَدْ كَانَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعَةُ أَبْنَاءٍ كُلُّهُمْ ذُكُورٌ، آمَنَ بِهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ، وَكَفَرَ الرَّابِعُ مَعَ أُمِّهِ، فَقَدْ كَانَتْ زَوْجَةُ نُوحٍ كَافِرَةً.. تَسْخَرُ مِنْ نُوحٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ كَمَا يَسْخَرُ الْكَافِرُونَ، وَتَقُولُ عَنْ زَوْجِهَا: إِنَّهُ مَجْنُونٌ!

فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ يَهْدِي أَحَدًا لَهَدَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنَهُ وَزَوْجَتَهُ، وَلَكِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

وَجَاءَ أَمْرُ اللهِ.. وَفَارَ تَنُّورُ الْخُبْزِ بِالْمَاءِ، فَأَخَذَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْمَعُ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ بَابَهَا الْكَبِيرَ، فَجَعَلَ الْحَيَوَانَاتِ فِي الطَّابَقِ السُّفْلِيِّ، وَجَعَلَ الطُّيُورَ فِي الطَّابَقِ الْعُلْوِيِّ، أَمَّا الطَّابَقُ الْأَوْسَطُ فَقَدْ كَانَ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، وَكَانَ

عَدَدُهُمْ لَا يَزِيدُ عَلَى الثَّمَانِينَ نَفْسًا رِجَالًا وَنِسَاءً، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ.

وَقَدْ يَسَّرَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لِنُوحٍ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ شَحْنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالطُّيُورِ فِي الْفُلْكِ، وَأَخَذَ كُلٌّ مِنْهَا مَكَانَهُ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ، ثُمَّ رَكِبَ نُوحٌ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ وَهُمْ يُرَدِّدُونَ: بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا؛ أَيْ بِاسْمِ اللهِ يَكُونُ جَرْيُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَبِاسْمِ اللهِ يَكُونُ رُسُوُّهَا عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ.

ثُمَّ انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَتَفَجَّرَتْ عُيُونُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ الْمُنْدَفِعِ، وَالْتَقَى مَاءُ السَّمَاءِ وَمَاءُ الْأَرْضِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَاشْتَدَّ فَزَعُ الْكَافِرِينَ وَخَوْفُهُمْ، وَمَلَأَ الْكَوْنَ صِيَاحُهُمْ وَصُرَاخُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَصَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَفَضَّلُوا الْغَرَقَ عَلَى الرُّكُوبِ مَعَ نُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ! حَتَّى إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَادَى ابْنَهُ الْكَافِرَ، وَكَانَ فِي مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ لَمْ يَصِلْهُ الْمَاءُ بَعْدُ:

ـ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ.

فَإِذَا بِهِ يَرُدُّ عَلَى أَبِيهِ بِمَنْطِقِ الْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ:

ـ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ.

فَيَرُدُّ عَلَيْهِ نُوحٌ بِمَنْطِقِ الْمُوقِنِ بِوَعْدِ اللهِ:

ـ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ.

وَكَانَ الْمَوْجُ قَدْ عَلَا كَالْجِبَالِ وَتَلَاطَمَ كَالصُّخُورِ، فَلَمْ يَسْمَعِ الِابْنُ جَوَابَ أَبِيهِ، وَأَخَذَتْهُ مَوْجَةٌ عَاتِيَةٌ مِنَ الْأَمْوَاجِ الثَّائِرَةِ، فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَأَغْلَقَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَابَ السَّفِينَةِ عَلَى أَصْحَابِهَا وَهُوَ يَقُولُ:

ـ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.. رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ.

نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَلَاكُ الْكَافِرِينَ

أَخَذَتِ السَّفِينَةُ تَجْرِي بِأَصْحَابِهَا فِي أَمْوَاجٍ كَالْجِبَالِ، وَتَذَكَّرَ نُوحٌ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ سُخْرِيَةَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عِنْدَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ السَّفِينَةَ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ:

ـ أَيْنَ سَتُبْحِرُ سَفِينَتُكَ يَا نُوحُ؟! مِنْ أَيْنَ سَتَأْتِي لَهَا بِالْمَاءِ؟!

هَا هُوَ الْمَاءُ يَعْلُو كَالْجِبَالِ، بَلْ لَقَدْ غَطَّى الْجِبَالَ! وَهَا هِيَ الْأَمْوَاجُ تَتَلَاطَمُ كَأَنَّهَا تَتَقَاتَلُ! لَا تَدَعُ بَيْتًا إِلَّا اقْتَلَعَتْهُ، وَلَا خَلْقًا إِلَّا أَغْرَقَتْهُ، وَلَا شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَّا جَرَفَتْهُ، وَهَا هِيَ السَّفِينَةُ تُبْحِرُ وَفِيهَا الْمُؤْمِنُونَ، بَلْ تَجْرِي وَتَدُورُ كَأَنَّهَا شَخْصٌ مَجْنُونٌ، مِنْ شِدَّةِ الْأَمْوَاجِ، وَهَوْلِ الطُّوفَانِ، وَعِظَمِ الْفَيَضَانِ.

فَأَيْنَ الْمُسْتَهْزِئُونَ السَّاخِرُونَ؟ وَأَيْنَ الْكَافِرُونَ الْمُعَانِدُونَ؟ لَقَدْ غَرِقُوا جَمِيعًا..

وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا أَصْحَابُ السَّفِينَةِ.. لَمْ يَنْجُ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ. وَهُنَا تَذَكَّرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنَهُ الَّذِي غَرِقَ مَعَ الْكَافِرِينَ، فَنَادَى رَبَّهُ قَائِلًا كَمَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ (هُود: 45)

فَجَاءَ الْجَوَابُ مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مُوَضِّحًا لَهُ مَا غَابَ عَنْهُ مِنْ وَعْدِ اللهِ الَّذِي وَعَدَهُ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ:

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (هُود: 46)

أَيْ هَذَا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وَعَدْتُكَ بِنَجَاتِهِمْ، فَقَدْ وَعَدْتُكَ بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فَقَطْ، أَمَّا هَذَا فَقَدْ كَفَرَ مَعَ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ حَذَّرَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بَعْدَ أَنْ وَضَّحَ لَهُ مَا غَابَ عَنْهُ، أَنْ يَسْأَلَ اللهَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ مَعَ الْجَاهِلِينَ.

فَامْتَثَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَ رَبِّهِ، وَخَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَجَاوَزَ الْأَدَبَ مَعَ اللهِ، وَأَسْرَعَ يَطْلُبُ مِنْهُ الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ.

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ السَّمَاءَ أَنْ تُقْلِعَ عَنِ الْمَطَرِ، وَأَمَرَ الْأَرْضَ أَنْ تَبْلَعَ مَاءَهَا. فَكَفَّتِ السَّمَاءُ عَنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ، وَالْتَأَمَتْ عُيُونُ الْأَرْضِ وَبَلَعَتِ مَا بِهَا مِنْ مَاءٍ، وَبَقِيَ مَاءُ الطُّوفَانِ الَّذِي يَحْمِلُ السَّفِينَةَ، وَكَانَ ارْتِفَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَعْلَى قِمَّةِ جَبَلٍ بِحَوَالَيْ عَشَرَةِ أَمْتَارٍ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ.

ثُمَّ أَخَذَتِ الْأَرْضُ تَبْلَعُ مَا تَجَمَّعَ فَوْقَهَا مِنْ مَاءٍ، وَأَخَذَ الْمَاءُ يَغِيضُ ـ أَيْ يَنْقُصُ ـ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّى إِنَّ السَّفِينَةَ اسْتَمَرَّتْ تُبْحِرُ بِأَصْحَابِهَا فِي هَذَا الْمَاءِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا، كَمَا جَاءَ عِنْدَ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ، وَاللهُ يَحْرُسُهُمْ بِعِنَايَتِهِ،

وَيَحُوطُهُمْ بِرِعَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُمْ بِحِفْظِهِ وَحِمَايَتِهِ، حَتَّى اسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ وَرَسَتْ فَوْقَ جَبَلِ «الْجُودِيِّ».

وَقِيلَ: إِنَّ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ ظَلُّوا فِي السَّفِينَةِ بَعْدَ اسْتِوَائِهَا عَلَى الْجُودِيِّ شَهْرًا كَامِلًا لَمْ يَنْزِلُوا مِنْهَا. وَتُرْوَى هَا هُنَا قِصَّةٌ ذَكَرَهَا الْمُفَسِّرُونَ مَفَادُهَا أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْسَلَ الْغُرَابَ لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ رَسَتِ السَّفِينَةُ وَاسْتَوَتْ، فَذَهَبَ الْغُرَابُ فَوَقَعَ عَلَى الْجِيفِ وَأَخَذَ يَأْكُلُ مِنْهَا، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى السَّفِينَةِ، فَأَرْسَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَمَامَةَ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ عَادَتْ إِلَيْهِ تَحْمِلُ فِي فَمِهَا غُصْنَ زَيْتُونٍ، وَقَدْ تَلَطَّخَتْ رِجْلَاهَا بِالطِّينِ. فَعَلِمَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ نَضَبَ، وَأَنَّ سَطْحَ الْأَرْضِ قَدِ انْكَشَفَ، فَأَمَرَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ بِالنُّزُولِ مِنْهَا.

وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَهْبِطْ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ اللهُ؛ فَقَدْ كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً إِلَّا بِأَمْرِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

وَقَدْ بَارَكَ اللهُ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلُوا مِنْهَا، ثُمَّ أَنْزَلَهُمْ مِنْهَا بِسَلَامٍ، لَمْ يُصِبْهُمْ أَذًى وَلَا سُوءٌ، فَنَزَلُوا مِنْهَا فَوْقَ الْجَبَلِ مُبَارَكِينَ، ثُمَّ هَبَطُوا إِلَى الْأَرْضِ سَالِمِينَ، كَمَا قَالَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ:

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (هُود: 48)

وَهَكَذَا نَجَّى اللهُ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَأَغْرَقَ الْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ، وَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ، وَعَادَتِ الْأَرْضُ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ طُهْرٍ وَإِيمَانٍ، قَبْلَ أَنْ تُعْبَدَ فِيهَا الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ.

أَصْحَابُ الْحِجْرِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟
عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(الْحِجْر: 80 ـ 84)

مَنَازِلُ ثَمُودَ

كَانَ ثَمُودُ بْنُ عَابَرَ مِنْ بَنِي سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَكَانَ رَأْسَ قَبِيلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُرِفَتْ بِاسْمِهِ، فَيُقَالُ ثَمُودُ وَيُرَادُ الْقَبِيلَةُ، وَقَدْ يُقَالُ قَوْمُ ثَمُودَ وَقَبِيلَةُ ثَمُودَ. وَكَانُوا يَعِيشُونَ فِي مِنْطَقَةٍ تَقَعُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَالشَّامِ فِي شَمَالِ الْحِجَازِ، ضِمْنَ وَادٍ كَبِيرٍ مُتَّسِعٍ يُسَمَّى وَادِيَ الْقُرَى.. يَضُمُّ قُرًى كَثِيرَةً، وَمِنْ بَيْنِهَا قَرْيَةُ الْحِجْرِ الَّتِي تَسْكُنُهَا ثَمُودُ، وَبِهَا مَنَازِلُهُمْ وَدِيَارُهُمْ، وَهِيَ قَرْيَةٌ تَقَعُ بَيْنَ الْجِبَالِ، وَلَهَا سُهُولٌ فَسِيحَةٌ خَضْرَاءُ.

وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَأَهْلِهَا بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ، خَصَّهُمْ بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ، وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ النِّعَمِ: نِعْمَةُ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، وَنِعْمَةُ الْعُيُونِ وَالْآبَارِ، فَكَانَتْ أَرْضُهُمْ حَدَائِقَ وَجَنَّاتٍ، بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الثِّمَارِ وَالْخَيْرَاتِ، الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، وَعَلَى رَأْسِهَا النَّخِيلُ وَالرُّمَّانُ. وَعِنْدَ سَفْحٍ مِنْ سُفُوحِ الْجِبَالِ الَّتِي تُحِيطُ بِالْقَرْيَةِ تُوجَدُ بِئْرٌ عَظِيمَةٌ، مِيَاهُهَا عَذْبَةٌ نَمِيرَةٌ، تَكْفِي الْقَرْيَةَ وَأَهْلَهَا جَمِيعًا، إِلَى جَانِبِ الْكَثِيرِ مِنَ الْعُيُونِ الصَّغِيرَةِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ مَزَارِعِ الْقَرْيَةِ وَحَدَائِقِهَا.

وَكَانَتْ مَنَازِلُ ثَمُودَ وَسَطَ هَذِهِ السُّهُولِ الْفَسِيحَةِ الْخَضْرَاءِ قُصُورًا عَظِيمَةً وَاسِعَةً، تُحِيطُ بِهَا الْحَدَائِقُ وَالْبَسَاتِينُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ بَيْنَ كُلِّ قَصْرٍ وَقَصْرٍ مِسَاحَةٌ شَاسِعَةٌ حَتَّى لَيُخَيَّلُ لِلرَّائِي أَنَّ هَذِهِ الْقُصُورَ وَالْبُيُوتَ لَا تَتْبَعُ قَرْيَةً وَاحِدَةً لِبُعْدِ مَا بَيْنَهَا مِنْ مَسَافَاتٍ.

وَكَانَ أَهْلُ ثَمُودَ بَنَّائِينَ مَهَرَةً، يُتْقِنُونَ مِهْنَةَ الْبِنَاءِ وَالتَّشْيِيدِ، أَتْقَنُوا بِنَاءَ بُيُوتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَتَفَنَّنُوا فِي هَنْدَسَتِهَا وَزَخْرَفَتِهَا، حَتَّى لَكَأَنَّهَا قُصُورُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ،

وَكَانَ إِتْقَانُهُمْ لِهَذِهِ الْمِهْنَةِ وَإِحْكَامُهُمْ لَهَا مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ، إِلَى جَانِبِ نِعْمَةِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ، وَصِحَّةِ وَقُوَّةِ الْأَبْدَانِ، وَكَثْرَةِ الْحَدَائِقِ وَالْجِنَانِ.

فَكَيْفَ قَابَلَ أَهْلُ ثَمُودَ كُلَّ هَذِهِ النِّعَمِ؟ وَكَيْفَ اسْتَغَلُّوهَا؟ وَمَاذَا صَنَعُوا فِيهَا؟

لَقَدْ كَانَ جَدِيرًا بِهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ عَلَيْهَا، وَيَسْتَغِلُّوهَا فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَغْوَاهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، فَاسْتَجَابَتْ لَهُ نُفُوسُهُمُ الَّتِي أَبْطَرَتْهَا كَثْرَةُ النِّعَمِ، وَغَرَّتْهَا نِعْمَةُ الْعَيْشِ وَصِحَّةُ الْبَدَنِ، فَصَنَعُوا الْأَصْنَامَ بِأَيْدِيهِمْ، وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى!

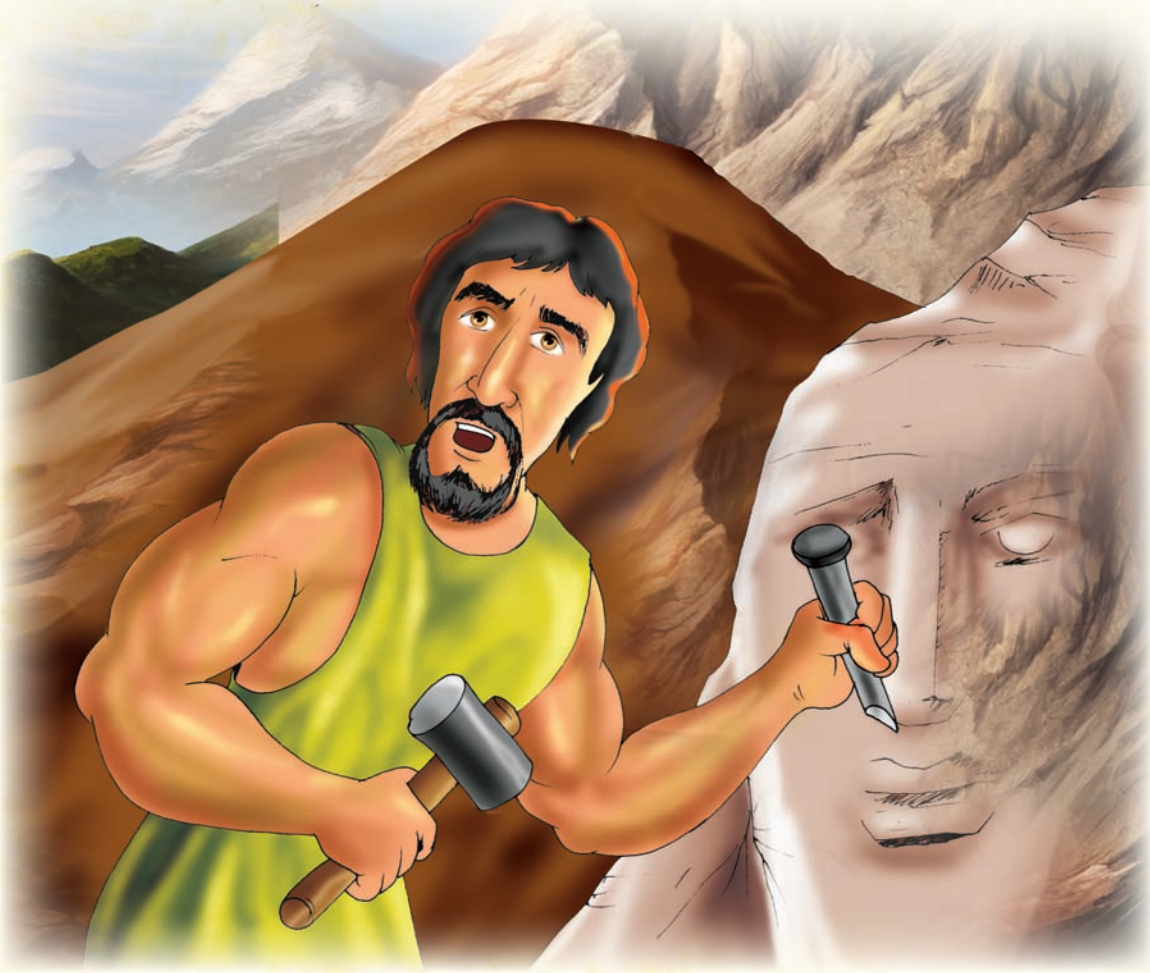

وَكَانَ مِنْ بَطَرِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا قُصُورَهُمْ وَحَدَائِقَهُمْ، وَصَعِدُوا الْجِبَالَ الْمُحِيطَةَ بِهِمْ يُرِيدُونَ تَحْوِيلَهَا إِلَى بُيُوتٍ وَمَنَازِلَ بَلْ إِلَى قِلَاعٍ وَمَعَاقِلَ! فَهُمُ الْبَنَّاءُونَ الْمَهَرَةُ وَالْمُهَنْدِسُونَ الْبَارِعُونَ، فَكَانُوا يَقْضُونَ الْأَيَّامَ وَالْأَسَابِيعَ وَرُبَّمَا الشُّهُورَ وَالسِّنِينَ يَنْحِتُونَ الصُّخُورَ، وَيَكْسِرُونَ الْأَحْجَارَ، وَيَبْنُونَ الْبُيُوتَ دَاخِلَ الْجِبَالِ، وَبَيْنَ ثَنَايَا الصُّخُورِ، بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ وَإِتْقَانٍ عَجِيبٍ، عَلَى هَيْئَاتٍ غَرِيبَةٍ وَأَشْكَالٍ عَجِيبَةٍ! ثُمَّ إِذَا تَمَّ لَهُمْ مَا أَرَادُوا لَا يُقِيمُونَ فِيهَا وَلَا يَسْكُنُونَهَا! بَلْ يَتْرُكُونَهَا إِلَى مَنَاطِقَ أُخْرَى دَاخِلَ الْجِبَالِ أَشَدَّ وُعُورَةً وَأَكْثَرَ صُعُوبَةً يَنْحِتُونَ فِيهَا وَيُشَيِّدُونَ؛ إِعْجَابًا بِمَهَارَاتِهِمُ الْهَنْدَسِيَّةِ وَقُدْرَاتِهِمُ الْبِنَائِيَّةِ، وَفَخْرًا وَبَطَرًا وَإِسْرَافًا وَعَبَثًا بِكُلِّ مَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ.

وَكَمَا كَانُوا يَنْحِتُونَ الْبُيُوتَ وَالْقِلَاعَ، كَانُوا يَنْحِتُونَ التَّمَاثِيلَ وَالْأَصْنَامَ، ثُمَّ يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَيَدْعُونَهَا أَنْ تُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَأَنْ تَرْزُقَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ!!

وَهَكَذَا قَابَلَ أَهْلُ ثَمُودَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرَانِ وَالْجُحُودِ، وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَأَطَاعُوا الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، وَاسْتَغَلُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يَنْفَعُ أَحَدًا بَعْدَهُمْ! فَأَرْسَلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَوَاحِدًا مِنْ عَشِيرَتِهِمْ وَأَخًا لَهُمْ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَعَدَمِ طَاعَةِ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، وَهُوَ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَرْسَلَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نَبِيَّهُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ثَمُودَ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ عَاثُوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَقَابَلُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِنْكَارِ وَالْجُحُودِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.. اللهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، وَرَزَقَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ الْعُيُونَ وَالْآبَارَ؛ لِيَشْرَبُوا مَاءً عَذْبًا بَارِدًا، وَأَنْبَتَ لَهُمُ الْحَدَائِقَ وَالْأَشْجَارَ، وَرَزَقَهُمْ مِنْهَا لَذِيذَ الطَّعَامِ وَشَهِيَّ الثِّمَارِ، وَمَنَحَهُمُ الْأَمَانَ فِي أَوْطَانِهِمْ، وَعَلَّمَهُمُ التَّشْيِيدَ وَالْبِنَاءَ، وَأَتَاحَ لَهُمُ الْأَرْضَ يَبْنُونَ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ. فَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُنْعِمُ الرَّزَّاقُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

وَأَمَرَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَلَا تَمْلِكُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، بَلْ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْلِبَ لِنَفْسِهَا نَفْعًا أَوْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا. وَأَمَرَهُمْ كَذَلِكَ أَلَّا يُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، وَأَنْ يَتَّقُوا اللهَ فِي كُلِّ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَلَا يُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا يَتَّبِعُوا الْمُفْسِدِينَ.

فَآمَنَتْ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَكَفَرَ بِهِ مُعْظَمُهُمْ وَكَذَّبُوهُ، وَكَانَتْ حُجَّتُهُمْ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، وَقَالُوا:

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ ﴾ (الْقَمَر: 24، 25)

فَتَحَمَّلَ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْإِهَانَةَ، وَصَبَرَ عَلَى هَذَا الْأَذَى، وَوَاصَلَ دَعْوَتَهُ إِلَى قَوْمِهِ مُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ السِّيَادَةَ وَلَا الزَّعَامَةَ، بَلْ يُرِيدُ لَهُمُ الْهِدَايَةَ.. يُرِيدُ أَنْ يُبَلِّغَهُمُ الرِّسَالَةَ الَّتِي أَرْسَلَهُ اللهُ بِهَا إِلَيْهِمْ:

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الشُّعَرَاء: 143 ـ 145)

فَوَجَّهُوا لَهُ اتِّهَامًا آخَرَ مُصِرِّينَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ قَائِلِينَ:

- لَقَدْ كُنَّا نَظُنُّكَ عَاقِلًا قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا تَقُولُ! أَتَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرُكَ مَا عَبَدَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ؟ أَتَتَّهِمُ آبَاءَنَا الَّذِينَ كَانُوا أَفْضَلَ مِنَّا وَكَانُوا... وَكَانُوا.. أَتَتَّهِمُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى خَطَأٍ وَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ؟! إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ!

فَمَا كَانَ مِنْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَنْ صَبَرَ عَلَى هَذِهِ الْإِهَانَةِ أَيْضًا، وَخَاطَبَ قَوْمَهُ فِي وُدٍّ وَلُطْفٍ قَائِلًا:

- يَا أَهْلِي وَعَشِيرَتِي.. مَا قَوْلُكُمْ إِنْ كَانَ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقَّ؟ فَهَلْ سَتَدْفَعُونَ عَنِّي عِقَابَ اللهِ إِنْ تَرَكْتُ هَذَا الْحَقَّ؟! بَلْ كَيْفَ سَتَكُونُ حَالُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ إِذَا كَذَّبْتُمْ هَذَا الْحَقَّ؟! إِنَّنِي سَأَظَلُّ أَدْعُوكُمْ إِلَى هَذَا الْحَقِّ وَلَنْ أَتْرُكَهُ أَبَدًا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

فَاغْتَاظَ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ مِنْ عَقْلَانِيَّةِ الرَّدِّ وَحِكْمَتِهِ، وَمِنْ ثَبَاتِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى دَعْوَتِهِ، فَوَجَّهُوا لَهُ اتِّهَامًا ثَالِثًا دَفَعَهُمْ إِلَيْهِ عِنَادُهُمْ وَاسْتِكْبَارُهُمْ، فَقَالُوا لَهُ:

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ (الشُّعَرَاء: 153)

أَيِ الْمَسْحُورِينَ الَّذِينَ لَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ وَلَا مَا يَفْعَلُونَ.

فَصَبَرَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَذَاهُمْ، وَاسْتَمَرَّ فِي دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ، مُذَكِّرًا تَارَةً بِنِعَمِ اللهِ وَمُحَذِّرًا تَارَةً أُخْرَى مِنْ عِقَابِ اللهِ، وَلَكِنَّ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ أَبَوْا إِلَّا الرَّفْضَ وَالْعِنَادَ وَمُحَارَبَةَ الدَّعْوَةِ وَأَتْبَاعِهَا، فَبَعْدَ أَنْ يَئِسُوا مِنْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَأَكَّدُوا

مِـنْ تَمَسُّـكِهِ بِدَعْوَتِهِ وَثَبَاتِهِ عَلَيْهَـا، ذَهَبُـوا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِ يُرِيـدُونَ زَعْزَعَتَهُمْ عَنْ إِيمَانِهِمْ، وَتَشْكِيكَهُمْ فِي صِدْقِ نَبِيِّهِمْ.

وَبِحِقْـدِ الْكَافِرِيـنَ وَخُبْـثِ الضَّالِّيـنَ وَلُـؤْمِ الْمُعَانِدِيـنَ اخْتَـارُوا الضُّعَفَـاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَسْـهُلَ عَلَيْهِمْ خِدَاعُهُمْ وَتَشْـكِيكُهُمْ، وَلِيُحَقِّقُوا لِأَنْفُسِهِمْ نَصْرًا سَهْلًا يَنَالُونَ بِهِ مِنْ صَالِحٍ وَدَعْوَتِهِ، فَذَهَبُوا إِلَى الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَـأَلُوهُمْ سُـؤَالًا مُرِيبًا يُرِيدُونَ بِهِ زَعْزَعَةَ إِيمَانِهِمْ:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (الْأَعْرَاف: 75).

فَأَجَابَ الضُّعَفَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِجَابَةً سَـهْلَةً سَرِيعَةً فِطْرِيَّةً، دَفَعَهُمْ إِلَيْهَا إِيمَانُهُمُ الْكَامِلُ وَعَقِيدَتُهُمُ الصَّحِيحَةُ:

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (الْأَعْرَاف: 75).

تَجَـاوَزُوا بِإِيمَانِهِـمْ سُـؤَالَ الْكَافِرِيـنَ، وَجَـاءَتْ إِجَابَتُهُـمْ صَادِمَـةً لِلْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ، الَّذِيـنَ رَوَّعَتْهُمُ الْإِجَابَةُ، وَأَفْزَعَتْهُمْ ثِقَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَثَبَاتُهُمْ وَشَـجَاعَتُهُمْ، فَقَالُوا فِي حِدَّةٍ وَطَيْشٍ وَتَكَبُّرٍ:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

(الْأَعْرَاف: 76)

ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ، وَلَكِنَّهُمْ سُرْعَانَ مَا اجْتَمَعُوا مَرَّةً أُخْرَى مَعَ نَبِيِّ اللهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّـلَامُ يَطْلُبُونَ مِنْهُ بُرْهَانًا عَلَى دَعْوَتِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى رِسَـالَتِهِ، وَمُعْجِزَةً تَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ. فَمَاذَا طَلَبُوا؟ هَذَا مَا سَنَعْرِفُهُ فِي الْقِصَّةِ التَّالِيَةِ.

نَاقَةُ اللهِ

إِنَّ ثَمُودَ أَصْحَابَ الْحِجْرِ كَذَّبُوا نَبِيَّهُمْ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَالَغُوا فِي إِيذَائِهِ بِأَلْسِنَتِهِمُ الْكَاذِبَةِ وَتُهَمِهِمُ الْبَاطِلَةِ، فَقَالُوا عَنْهُ: كَذَّابٌ أَشِرٌ، وَمَجْنُونٌ، وَمَسْحُورٌ. وَتَشَاءَمُوا بِهِ وَبِمَنْ آمَنَ مَعَهُ. وَفَكَّرُوا فِي طَرِيقَةٍ يُحْرِجُونَهُ بِهَا أَمَامَ النَّاسِ، وَيُثْبِتُونَ بِهَا أَمَامَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مُرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَطَلَبُوا مِنْهُ مُعْجِزَةً خَارِقَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِهِ، وَأَنَّهُ حَقًّا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ صُخُورِ الْجِبَالِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ نَاقَةً حَيَّةً! بَلْ حَدَّدُوا صِفَاتِ النَّاقَةِ الَّتِي يُرِيدُونَهَا، أَرَادُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ قَلْبِ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ الْجَامِدَةِ نَاقَةً حَيَّةً ضَخْمَةً طَوِيلَةً تَحْمِلُ فِي بَطْنِهَا جَنِينًا اقْتَرَبَتْ وِلَادَتُهُ! فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ثَبَاتٍ وَثِقَةٍ:

- أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَجَبْتُكُمْ إِلَى مَا تُرِيدُونَ، أَتُؤْمِنُونَ بِي وَتُصَدِّقُونَنِي وَتَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ، وَتَتْرُكُونَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ؟

فَقَالُوا فِي غُرُورٍ وَتَكَبُّرٍ:

- إِنْ جِئْتَ بِهَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي حَدَّدْنَاهُ لَكَ، وَبِالصِّفَاتِ الَّتِي أَخْبَرْنَاكَ بِهَا، آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَسَاعَتَهَا فَقَطْ نُصَدِّقُ أَنَّكَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ غَيْرُهُ أَنْ يُحَقِّقَ طَلَبَنَا.

فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوه، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مُصَلَّاهُ، وَوَقَفَ خَاشِعًا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، يُصَلِّي وَيَدْعُو وَيَتَضَرَّعُ أَنْ يُحَقِّقَ اللهُ لَهُمْ طَلَبَهُمْ؛ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُوَحِّدُوهُ، وَحَتَّى لَا تَكُونَ لَهُمْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ.

فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ نَبِيِّهِ، وَخَرَجَتْ مِنْ قَلْبِ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ نَاقَةٌ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ تَحْمِلُ فِي بَطْنِهَا جَنِينًا سَيُولَدُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَكَانَتْ مُعْجِزَةً خَارِقَةً وَآيَةً بَاهِرَةً، وَدَلِيلًا قَاطِعًا وَبُرْهَانًا سَاطِعًا، فَآمَنَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ بَنِي ثَمُودَ، وَظَلَّ أَكْثَرُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ!! فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الْأَعْرَاف: 73)

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ:

- إِنَّ مَاءَ الْبِئْرِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ سَيَكُونُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاقَةِ؛ حَيْثُ تَشْرَبُ وَحْدَهَا يَوْمًا وَلَا تَشْرَبُونَ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي تَشْرَبُونَ أَنْتُمْ وَلَا تَشْرَبُ هِيَ.

وَفِي الْمُقَابِلِ سَتَحْلِبُونَ مِنْ لَبَنِهَا مَا يَكْفِيكُمْ جَمِيعًا.

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ وَكَرَّرَ تَحْذِيرَهُ لَهُمْ بِأَلَّا يَمَسُّوهَا بِأَيِّ سُوءٍ، أَوْ يُحَاوِلُوا إِيذَاءَهَا بِأَيِّ طَرِيقَةٍ؛ حَتَّى لَا يُصِيبَهُمُ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ.

وَهَكَذَا عَاشَتِ النَّاقَةُ الْمُعْجِزَةُ بَيْنَ ثَمُودَ.. تَرْعَى فِي مَرَاعِيهِمْ حَيْثُ شَاءَتْ، وَتَشْرَبُ مِنَ الْبِئْرِ فِي يَوْمِهَا الْمَعْلُومِ وَلَا يَشْرَبُ مَعَهَا أَحَدٌ، وَوَضَعَتْ وَلِيدَهَا وَأَرْضَعَتْهُ مِنْ لَبَنِهَا، وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَى أَصْحَابِ الْحِجْرِ بِشَيْءٍ مِنْ لَبَنِهَا، فَكَانُوا يَحْلِبُونَهَا فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْبِئْرِ، فَيَكْفِيهِمْ لَبَنُهَا، ثُمَّ يَتْرُكُونَهَا تُرْضِعُ وَلِيدَهَا فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَشْرَبُونَ هُمْ فِيهِ مِنَ الْبِئْرِ.

وَكَانَتْ مُعْجِزَةً حَيَّةً أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ يَلْمَسُونَهَا وَيَحْلِبُونَهَا، فَتُحْيِي قُلُوبَهُمْ وَتُزَكِّي نُفُوسَهُمْ.. كُلَّمَا رَآهَا الْمُؤْمِنُونَ ازْدَادُوا إِيمَانًا، وَإِذَا رَآهَا الْحَائِرُونَ وَذَاقُوا لَبَنَهَا، ذَهَبَتْ حَيْرَتُهُمْ وَعَمَرَ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ. وَإِذَا رَآهَا الْمُعَانِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ ازْدَادُوا عِنَادًا وَتَكْذِيبًا، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ غَيْظًا وَحِقْدًا عَلَيْهَا؛ فَهِيَ السَّبَبُ فِي تَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ وَزِيَادَةِ عَدَدِهِمْ، وَوُجُودُهَا بَيْنَ النَّاسِ يُضْعِفُ حُجَّتَهُمْ وَيُوهِنُ مَوْقِفَهُمْ.

وَلَمَّا طَالَ وُجُودُ النَّاقَةِ وَصَغِيرِهَا بَيْنَ أَهْلِ ثَمُودَ، خَشِيَ الْكَافِرُونَ عَلَى سُلْطَتِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ يَأْتِيَ الْيَوْمُ الَّذِي يَكْثُرُ فِيهِ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ فَتَضِيعُ مَكَانَتُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِذَلِكَ قَرَّرُوا أَنْ يَعْقِدُوا اجْتِمَاعًا يُنَاقِشُونَ فِيهِ هَذَا الْأَمْرَ الْخَطِيرَ، وَيَأْخُذُونَ فِيهِ قَرَارًا حَاسِمًا بِشَأْنِ هَذِهِ النَّاقَةِ وَصَغِيرِهَا، وَبِشَأْنِ صَالِحٍ وَدَعْوَتِهِ.

عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

اجْتَمَعَ الْكُفَّارُ الْمُعَانِدُونَ فِي بَيْتِ زَعِيمِهِمْ وَزَعِيمِ الْقَبِيلَةِ بِأَسْرِهَا يُنَاقِشُونَ مُسْتَقْبَلَهُمْ، وَمُسْتَقْبَلَ سِيَادَتِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ، وَاتَّفَقُوا جَمِيعًا عَلَى أَنْ لَا مَكَانَةَ لَهُمْ وَلَا سِيَادَةَ مَا دَامَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنْهَا؛ لِإِيقَافِ دَعْوَةِ صَالِحٍ وَحِفْظِ مَكَانَتِهِمْ بَيْنَ الْقَبِيلَةِ.

وَوَضَعُوا خُطَّةَ قَتْلِ النَّاقَةِ وَذَبْحِهَا، وَكَانَ أَوَّلُ بَنْدٍ مِنْ بُنُودِ هَذِهِ الْخُطَّةِ هُوَ أَخْذَ مُوَافَقَةِ كُلِّ الْمُكَذِّبِينَ بِصَالِحٍ عَلَى ضَرُورَةِ ذَبْحِ النَّاقَةِ، وَأَلَّا يَنْتَقِلُوا إِلَى مَرْحَلَةِ التَّنْفِيذِ إِلَّا بَعْدَ مُوَافَقَةِ الْجَمِيعِ، وَلِذَلِكَ انْتَشَرَ هَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ بَيْنَ النَّاسِ يُحَاوِلُونَ إِقْنَاعَهُمْ بِالتَّخَلُّصِ مِنَ النَّاقَةِ، وَلَمْ يَجِدُوا صُعُوبَةً فِي إِقْنَاعِ مَنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ.

أَجْمَعَ كُلُّ مَنْ كَفَرَ بِصَالِحٍ وَدَعْوَتِهِ عَلَى ضَرُورَةِ ذَبْحِ النَّاقَةِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهَا فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، وَلِذَلِكَ انْتَقَلُوا إِلَى الْبَنْدِ الثَّانِي مِنَ الْخُطَّةِ، وَهُوَ مُرَاقَبَةُ النَّاقَةِ وَالِانْفِرَادُ بِهَا بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى إِذَا تَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ، نَفَّذُوا الْبَنْدَ الْأَخِيرَ وَهُوَ التَّخَلُّصُ مِنْهَا هِيَ وَصَغِيرِهَا.

وَقَدْ تَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَشْرَبُ فِيهِ النَّاقَةُ مِنَ الْبِئْرِ وَحْدَهَا وَلَا يَشْرَبُ مَعَهَا أَحَدٌ؛ فَرَمَاهَا أَحَدُهُمْ بِسَهْمٍ فِي سَاقِهَا وَهِيَ رَاجِعَةٌ مِنَ

الْبِئْـرِ لِيُثْبِتَهَا فِي مَكَانِهَا وَيَمْنَعَهَا مِـنَ الْعَدْوِ، ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهَا بَقِيَّةُ الْمُجْرِمِينَ يَقُودُهُمْ زَعِيمُ الْقَبِيلَةِ وَأَشْـقَاهَا.. يَضْرِبُونَهَا بِسُـيُوفِهِمْ فِي أَرْجُلِهَا لِيُسْـقِطُوهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا إِنْ سَقَطَتْ حَتَّى ذَبَحَهَا زَعِيمُهُمْ بِسَيْفِهِ، فَفَرَّ صَغِيرُهَا يَعْدُو بَيْنَ الْجِبَالِ، فَتَبِعُوهُ وَقَتَلُوهُ دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُمْ بِهِ رَحْمَةٌ أَوْ شَفَقَةٌ!!

وَلَمَّا عَلِمَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا فَعَلُوهُ، حَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا، وَقَالَ لِقَوْمِهِ:

ـ لَقَدْ حَذَّرْتُكُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ إِذَا آذَيْتُمُ النَّاقَةَ أَوْ مَسَسْتُوهَا بِسُوءٍ.

فَرَدُّوا عَلَيْهِ فِي اسْتِهْزَاءٍ وَاسْتِهْتَارٍ:

ـ هَا قَدْ ذَبَحْنَاهَا وَتَخَلَّصْنَا مِنْهَا وَمِنِ ابْنِهَا، فَأَيْنَ مَا تَعِدُنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ؟!

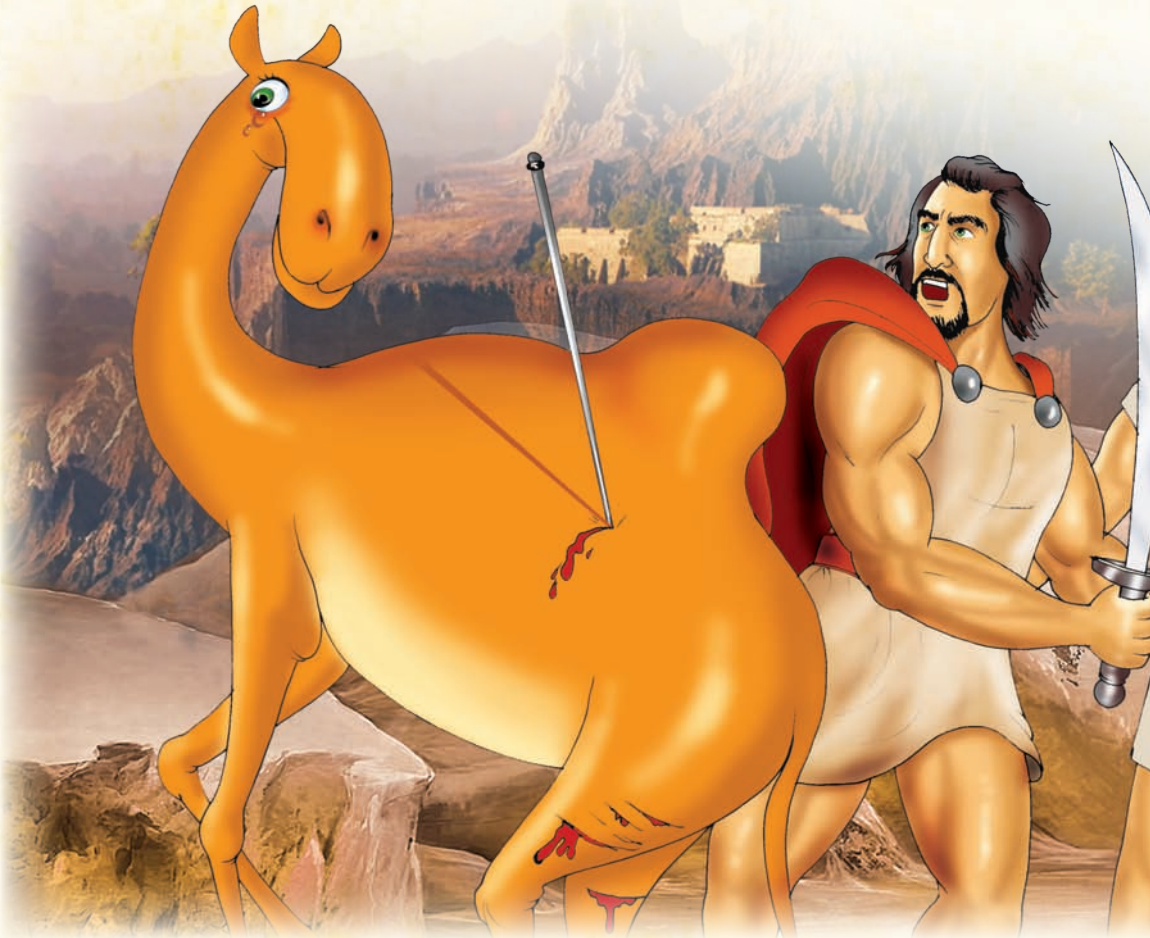

فَقَالَ لَهُمْ فِي حَزْمٍ:

- انْتَظِرُوهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بَدْءًا مِنَ الْغَدِ.

فَاجْتَمَعُوا يُخَطِّطُونَ لِقَتْلِهِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهُ، كَمَا تَخَلَّصُوا مِنَ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي أَتَى بِهَا، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُ هُوَ وَأَهْلِهِ فِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَكِنَّ اللهَ نَجَّى نَبِيَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ؛ إِذْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً عَظِيمَةً سَقَطَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَبَلِ وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى بَيْتِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَتَلَتْهُمْ فِي الْحَالِ.

وَأَصْبَحَ الْقَوْمُ وَقَدِ اصْفَرَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي أَوَّلِ أَيَّامِ الِانْتِظَارِ، فَلَمْ يَأْبَهُوا وَلَمْ يَهْتَمُّوا! وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَقَدِ احْمَرَّتْ وُجُوهُهُمْ، فَاسْتَمَرُّوا فِي ضَلَالِهِمْ وَعِنَادِهِمْ! وَلَمَّا أَصْبَحَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ آخِرُ أَيَّامِ الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَجَدُوا وُجُوهَهُمْ جَمِيعًا مُسْوَدَّةً! فَلَمْ تَقْشَعِرَّ أَبْدَانُهُمْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ قُلُوبُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَطَلَبِ الْعَفْوِ مِنَ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ!

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَبَعْدَ انْتِهَاءِ الْوَعْدِ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ.. جَلَسُوا جَمِيعًا فِي تَكْذِيبٍ وَعِنَادٍ يَنْتَظِرُونَ الْعَذَابَ!! فَأَرْسَلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِمْ صَيْحَةً عَظِيمَةً مِنَ السَّمَاءِ اهْتَزَّتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَزْهَقَتْ نُفُوسَهُمْ وَسَلَبَتْ أَرْوَاحَهُمْ، فَصَارُوا جُثَثًا هَامِدَةً لَا حَرَاكَ لَهَا، وَأَجْسَادًا مَيِّتَةً لَا أَرْوَاحَ فِيهَا.

وَنَجَّى اللهُ نَبِيَّهُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَرَحَلَ بِهِمْ نَبِيُّهُمْ إِلَى مِنْطَقَةٍ أُخْرَى تَارِكًا هَذِهِ الدِّيَارَ الْمَلِيئَةَ بِالْجُثَثِ الْهَامِدَةِ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيهَا. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ، وَفِيهَا مَاتَ نَبِيُّ اللهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدُفِنَ فِي بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ/ مَدْيَنَ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشُّعَرَاء: 176 – 189)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (التَّوْبَة: 70)

عَبَدَةُ الْأَشْجَارِ

قَـوْمُ مَدْيَنَ قَبِيلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، سَـكَنَتْ مَدِينَةً كَبِيرَةً عَلَى أَطْرَافِ شِـبْهِ الْجَزِيـرَةِ الْعَرَبِيَّةِ نَاحِيَةَ الشَّـامِ. وَقَدْ سُـمِّيَتْ بِاسْـمِهِمْ، فَصَارَ يُقَالُ لِـلْأَرْضِ: بِلَادُ مَدْيَنَ، وَيُقَالُ لِأَهْلِهَا: أَصْحَابُ مَدْيَنَ.

وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَسَـعَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، وَكَانُوا يَعِيشُـونَ فِي رَخَاءٍ وَخَيْرٍ. وَلَكِنَّهُـمْ قَابَلُـوا هَذِهِ النِّعَمَ بِالْكُفْـرَانِ وَالْجُحُودِ، وَلَمْ يَشْـكُرُوا اللهَ الْمُنْعِمَ الْوَدُودَ،

وَأَشْـرَكُوا مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ آلِهَةً أُخْرَى، لَمْ يَسْـبِقْهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى عِبَادَتِهَا! فَإِنْ كَانَ مَنْ سَـبَقَهُمْ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ وَالْكُفَّارِ، قَدِ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِـهِمْ آلِهَةً مِنَ الصُّخُورِ وَالْأَحْجَارِ، فَإِنَّ أَصْحَابَ مَدْيَنَ قَدِ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِـهِمْ آلِهَةً مِنَ الْأَشْـجَارِ!! فَعَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ شَـجَرَةً عَظِيمَةً، كَثِيرَةَ الْفُرُوعِ، مُلْتَفَّةَ الْأَغْصَانِ، وَيُحِيطُ بِهَا شَجَرٌ كَثِيرٌ مُلْتَفٌّ حَوْلَهَا، تُسَـمَّى الْأَيْكَةَ، وَلِذَلِكَ عُرِفُوا بِهَا وَانْتَسَـبُوا إِلَيْهَا، فَصَارَ يُقَالُ لَهُمْ: أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ.

وَكَانُوا إِلَى جَانِبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ ذَوِي أَخْلَاقٍ سَيِّئَةٍ وَصِفَاتٍ ذَمِيمَةٍ وَأَفْعَالٍ قَبِيحَةٍ؛ فَكَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ، وَيُرْهِبُونَ النَّاسَ وَيُخِيفُونَهُمْ، وَيَسْتَوْلُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا عَظِيمًا!!

وَكَانُوا يُعَامِلُونَ النَّاسَ مُعَامَلَةً سَيِّئَةً عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، فَكَانُوا إِذَا بَاعُوا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِمْ نَقَصُوهُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ فَلَا يُعْطُونَهُ حَقَّهُ، وَإِذَا اشْتَرَوْا مِنْهُ بَخَسُوهُ السِّعْرَ وَالْوَزْنَ، فَأَخَذُوا أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِمْ وَزْنًا وَدَفَعُوا أَقَلَّ مِنَ الثَّمَنِ مَالًا.

وَلِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، فَقَدْ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.. أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ وَأَهْلِهِ أَصْحَابِ مَدْيَنَ؛ فَقَدْ كَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا وَأَعَزِّهِمْ رَهْطًا، فَأَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَنْهَاهُمْ عَنْ أَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، وَأَخْلَاقِهِمُ الذَّمِيمَةِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَكَرِيمِ الصِّفَاتِ.

وَقَدْ أَقَامَ اللهُ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ الْقَاطِعَةَ وَالْبَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ شُعَيْبٍ، فَمَا آمَنَ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ، وَظَلَّ أَكْثَرُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

فَأَخَذَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَفَنَّنُ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ، وَيُنَوِّعُ الْأَسَالِيبَ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا مَعَهُمْ، فَأَخَذَ يُخَوِّفُهُمْ مِنْ سَخَطِ اللهِ وَعَذَابِهِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ بَطْشِهِ وَعِقَابِهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ تَطْفِيفِ الْمِكْيَالِ، وَنَقْصِ الْمِيزَانِ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَظُلْمِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُـمَّ أَخَذَ يُذَكِّرُهُـمْ بِنِعَمِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَيْهِمْ، وَكَيْفَ كَانُوا قِلَّةً مُسْـتَضْعَفِينَ، فَكَثَّرَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ سَلْبِ هَذِهِ النِّعَمِ إِنْ ظَلُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَفَسَـادِهِمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْـتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَـبِيلًا، وَأَنَّهُ لَنْ يَدَّخِرَ فِي سَـبِيلِ ذَلِكَ جُهْدًا وَلَا طَاقَةً، وَأَنَّهُ لَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِمَّا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ.

فَمَا كَانَ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ إِلَّا أَنِ اسْـتَهْزَءُوا بِشُـعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسَـخِرُوا مِنْ دَعْوَتِهِ وَعِبَادَتِهِ الَّتِي تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَتْرُكُـوا دِينَهُمْ وَدِينَ آبَائِهِمْ، وَيَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا تَطْفِيفَ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَيُغَيِّرُوا طَرِيقَتَهُمْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَقَالُوا لَهُ:

ـ إِنَّ هَذَا الَّذِي تَأْمُرُنَا بِهِ لَا يَقُولُهُ رَجُلٌ عَاقِلٌ رَشِيدٌ!

فَحَذَّرَهُمْ شُـعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّـلَامُ أَنْ يُصِيبَهُـمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْمُشْـرِكِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ.

وَلَكِـنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ رَفَضُوا هَذَا التَّحْذِيرَ، وَهَدَّدُوا شُـعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِالطَّرْدِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ يَتْرُكُوا هَذَا الدِّينَ، وَيَعُودُوا إِلَى دِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ!

فَقَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ـ إِنَّنَـا لَـنْ نَعُودَ إِلَى دِينِكُـمْ ـ إِذَا عُدْنَا ـ إِلَّا مُكْرَهِينَ مُجْبَرِيـنَ؛ لِأَنَّنَا قَدْ ذُقْنَا حَلَاوَةَ الْإِيمَـانِ بِـاللهِ الْوَاحِدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَـنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَـانِ لَا يَعُودُ أَبَدًا إِلَى الْكُفْرِ، إِلَّا إِذَا أَرَادَ اللهُ ذَلِكَ.

وَكَانَ هَـذَا التَّهْدِيدُ مِنْ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ لِنَبِيِّهِمْ عَلَامَةً فَارِقَةً فِي حَيَاتِهِمْ. وَهَذَا مَا سَنَعْرِفُهُ فِي الْقِصَّةِ التَّالِيَةِ.

سَحَابَةُ الْعَذَابِ

لَمَّا رَأَى أَهْلُ مَدْيَنَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَدَّخِرُ جُهْدًا فِي نَشْرِ دَعْوَتِهِ، وَأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ، وَقِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ـ لَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَخَذَ سَادَتُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ يَحْلِفُونَ بِكُلِّ آلِهَتِهِمْ، وَيُقْسِمُونَ بِدِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ إِنَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوا شُعَيْبًا وَآمَنُوا بِهِ لَخَاسِرُونَ.

ثُمَّ انْتَقَلُوا إِلَى تَهْدِيدِ النَّبِيِّ نَفْسِهِ بِالْقَتْلِ وَالرَّجْمِ قَائِلِينَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمُ الْقُرْآنُ:

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هُود: 91)

يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ كَلَامَ خَطِيبِ الْأَنْبِيَاءِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي خَاطَبَهُمْ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ، وَكَلَّمَهُمْ بِأَبْلَغِ كَلَامٍ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَأْبُونَ الْهِدَايَةَ وَيَرْفُضُونَ الرِّسَالَةَ! وَلِذَلِكَ حَارَبُوا نَبِيَّهُمْ وَرَمَوْهُ بِالْكَذِبِ، وَاتَّهَمُوهُ بِالسِّحْرِ وَالْجُنُونِ!

وَهَا هُمُ الْآنَ يُهَدِّدُونَهُ بِالْقَتْلِ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنْفِيذِ تَهْدِيدِهِمْ إِلَّا خَوْفُهُمْ مِنْ قَبِيلَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ، فَهُمْ لَا يَخَافُونَ مِنْ بَطْشِ اللهِ وَعَذَابِهِ إِنْ قَتَلُوا نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ؛ فَقَدْ جَعَلُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَصَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِضَلَالِهِمْ وَفَسَادِهِمْ! لِدَرَجَةِ أَنَّهُمُ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللهِ وَغَضَبَهُ، وَطَلَبُوا نِقْمَتَهُ وَسَخَطَهُ! فَقَالُوا كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمُ الْقُرْآنُ:

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (الشُّعَرَاء: 187)

فَمَا كَانَ مِنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ، وَفَقَدَ كُلَّ الْأَمَلِ فِي

صَلَاحِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ - إِلَّا أَنْ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ طَالِبًا النُّصْرَةَ مِنَ اللهِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ قَائِلًا:

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (الْأَعْرَاف:89)

أَيِ افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّكَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ أَبَدًا.

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى قَوْمِهِ وَقَالَ لَهُمْ مُهَدِّدًا:

- اسْتَمِرُّوا عَلَى كُفْرِكُمْ وَضَلَالِكُمْ، وَسَأَبْقَى أَنَا وَمَنْ مَعِيَ عَلَى إِيمَانِنَا، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ الصَّادِقُ وَمَنِ الْكَذَّابُ.. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ الَّذِي سَتُصِيبُهُ النِّقْمَةُ وَالْعَذَابُ، وَمَنِ الَّذِي سَتُدْرِكُهُ رَحْمَةُ الرَّحِيمِ التَّوَّابِ. فَانْتَظِرُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُنْتَظِرُونَ.

وَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ نَبِيِّهِ؛ فَاللهُ لَا يَرُدُّ دُعَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، وَصَبَّ الْعَذَابَ صَبًّا عَلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَجَمَعَ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ

مِنْ قَبْلِهِمْ؛ فَقَدْ عَذَّبَهُمُ اللهُ بِالصَّيْحَةِ، وَالرَّجْفَةِ، وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ. وَالصَّيْحَةُ هِيَ الصَّوْتُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَسْكَتَ أَصْوَاتَهُمْ وَأَخْرَسَ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَصَمَّ آذَانَهُمْ، وَالرَّجْفَةُ هِيَ الزِّلْزَالُ الشَّدِيدُ وَالْهِزَّةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي أَسْكَنَتْ حَرَكَاتِهِمْ وَأَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ، وَالظُّلَّةُ هِيَ سَحَابَةُ النَّارِ الْمُحَمَّلَةُ بِالشَّرَرِ وَالشُّهُبِ!

وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْعَذَابَاتُ كُلُّهَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ وَسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَصَابَهُمُ اللهُ بِحَرٍّ شَدِيدٍ سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ، لَمْ تَهُبَّ عَلَيْهِمْ فِيهَا نَسْمَةُ هَوَاءٍ، وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ خِلَالَهَا الِاسْتِحْمَامُ بِالْمَاءِ، وَلَا ظِلُّ الْأَيْكَةِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَلَا الْبُيُوتُ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا، فَهَرَبُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ؛ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ فِيهَا الشِّفَاءَ، فَرَأَوْا سَحَابَةً عَظِيمَةً، فَجَرَى بَعْضُهُمْ تَحْتَهَا؛ لِيَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، فَشَعَرُوا بِبُرُودَةِ الْهَوَاءِ، فَنَادَوْا إِخْوَانَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، فَاجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَهَا، رِجَالًا وَأَطْفَالًا وَنِسَاءً، حَتَّى جَاءَتْهُمْ حَيَوَانَاتُهُمْ وَدَوَابُّهُمْ.

فَلَمَّا اكْتَمَلَ عَدَدُهُمْ، وَتَجَمَّعَ جَمْعُهُمْ، جَاءَتْهُمُ الصَّيْحَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ السَّحَابَةُ مِنْ فَوْقِهِمْ شُهُبًا مِنْ نَارٍ، وَشَرَرًا كَأَمْوَاجِ الْبِحَارِ!! فَأَبَادَتْهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ!

وَنَجَّى اللهُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، فَتَرَكُوا هَذِهِ الدِّيَارَ الَّتِي أَصَابَهَا الْعَذَابُ، وَحَلَّتْ عَلَيْهَا النِّقْمَةُ وَالْعِقَابُ، غَيْرَ آسِفِينَ عَلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ هَذَا الْمَآلَ، بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ ذَهَبُوا إِلَى مَكَّةَ وَاسْتَوْطَنُوهَا، وَأَنَّ قُبُورَهُمْ غَرْبِيَّ الْكَعْبَةِ.

أَصْحَابُ السَّبْتِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ ﴾

(النِّسَاء: 47)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦ ﴾

(الْأَعْرَاف: 163 ـ 166)

يَوْمُ السَّبْتِ

الْيَهُودُ هُمْ أَتْبَاعُ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ عَانَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ؛ إِذْ كَانُوا لَا يُطِيعُونَهُ فِي أَمْرٍ، وَلَا يُوَقِّرُونَهُ فِي رَأْيٍ، وَكَانُوا لَا يَلْتَزِمُونَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ اللهُ، وَشَرَعَهُ لَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ. وَكَانُوا يَتَشَدَّدُونَ فِي دِينِ اللهِ، وَيُشَدِّدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْعَمَلَ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ يَوْمَ السَّبْتِ، فَلَا زَرْعَ وَلَا سَقْيَ وَلَا حَصَادَ، وَلَا بَيْعَ وَلَا شِرَاءَ وَلَا اصْطِيَادَ، وَلَا رَعْيَ وَلَا تِجَارَةَ وَلَا صِنَاعَةَ، إِنَّمَا هُوَ يَوْمٌ لِلْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، وَصَفَاءِ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ.

وَبَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُدَّةٍ، كَانَ يَعِيشُ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ فِي قَرْيَةٍ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ تُسَمَّى أَيْلَةَ، وَكَانَ عَمَلُهُمُ الْأَسَاسِيُّ وَمِهْنَتُهُمُ الرَّئِيسِيَّةُ هِيَ الصَّيْدَ، مِثْلُهُمْ مِثْلُ أَيِّ قَرْيَةٍ تَقَعُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، يَشْتَغِلُ غَالِبِيَّةُ سُكَّانِهَا بِالصَّيْدِ، فَيَصِيدُونَ الْأَسْمَاكَ، وَيُطْعِمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، وَيَبِيعُونَ مَا يَفِيضُ عَنْ حَاجَتِهِمْ فِي السُّوقِ.

وَكَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ يُعَظِّمُونَ السَّبْتَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، فَكَانُوا لَا يَصِيدُونَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، وَإِنَّمَا يَمْكُثُونَ فِي بُيُوتِهِمْ يُسَبِّحُونَ اللهَ وَيَذْكُرُونَهُ، وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُخْلِصِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ، وَبَعْضَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ اللهَ أَصْلًا وَلَا يَذْكُرُونَهُ، بَلْ كَانُوا يَقْضُونَ سَبْتَهُمْ فِي اللَّهْوِ وَالْمَرَحِ وَالتَّنَزُّهِ! وَكَانُوا إِذَا عَابَ عَلَيْهِمُ الصَّالِحُونَ مِنْهُمُ انْشِغَالَهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ،

رَفَضُوا نَصِيحَتَهُمْ وَأَجَابُوهُمْ قَائِلِينَ:

- إِنَّمَا نُهِينَا عَنِ الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَهَا نَحْنُ لَا نَعْمَلُ، فَاتْرُكُونَا وَشَأْنَنَا، فَلَسْتُمْ أَعْبَدَ لِلهِ مِنَّا!

فَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى:

- إِنَّمَا نَهَانَا اللهُ عَنِ الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ، وَأَمَرَنَا بِالْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ، فَكَيْفَ تَجْتَنِبُونَ النَّهْيَ وَلَا تُنَفِّذُونَ الْأَمْرَ؟!

فَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُمْ، وَتَعْلُو أَصْوَاتُهُمْ قَائِلِينَ:

ـ إِنَّكُمْ مُتَشَـدِّدُونَ، وَإِنَّا لَنْ نَسْـمَعَ لَكُمْ أَبَدًا، فَلَا تُتْعِبُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَنَا، وَوَفِّرُوا نَصَائِحَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَنَحْنُ لَمْ نَرْتَكِبْ إِثْمًا وَلَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا حَرَامًا!

وَاسْـتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ سِنِينَ عَدَدًا، زَادَ فِيهَا عَدَدُ الْمُعْرِضِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ فِي يَوْمِ السَّـبْتِ، فَأَرَادَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِسَـبَبِ فِسْـقِهِمْ وَتَرْكِهِمْ أَمْـرَ رَبِّهِمْ، فَأَمَرَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الْأَسْـمَاكَ وَالْحِيتَانَ

أَنْ تَخْرُجَ لَهُمْ عَلَى الشَّـاطِئِ يَوْمَ السَّبْتِ،

وَأَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُمْ، وَتَلْعَبَ وَتَمْرَحَ

أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ!

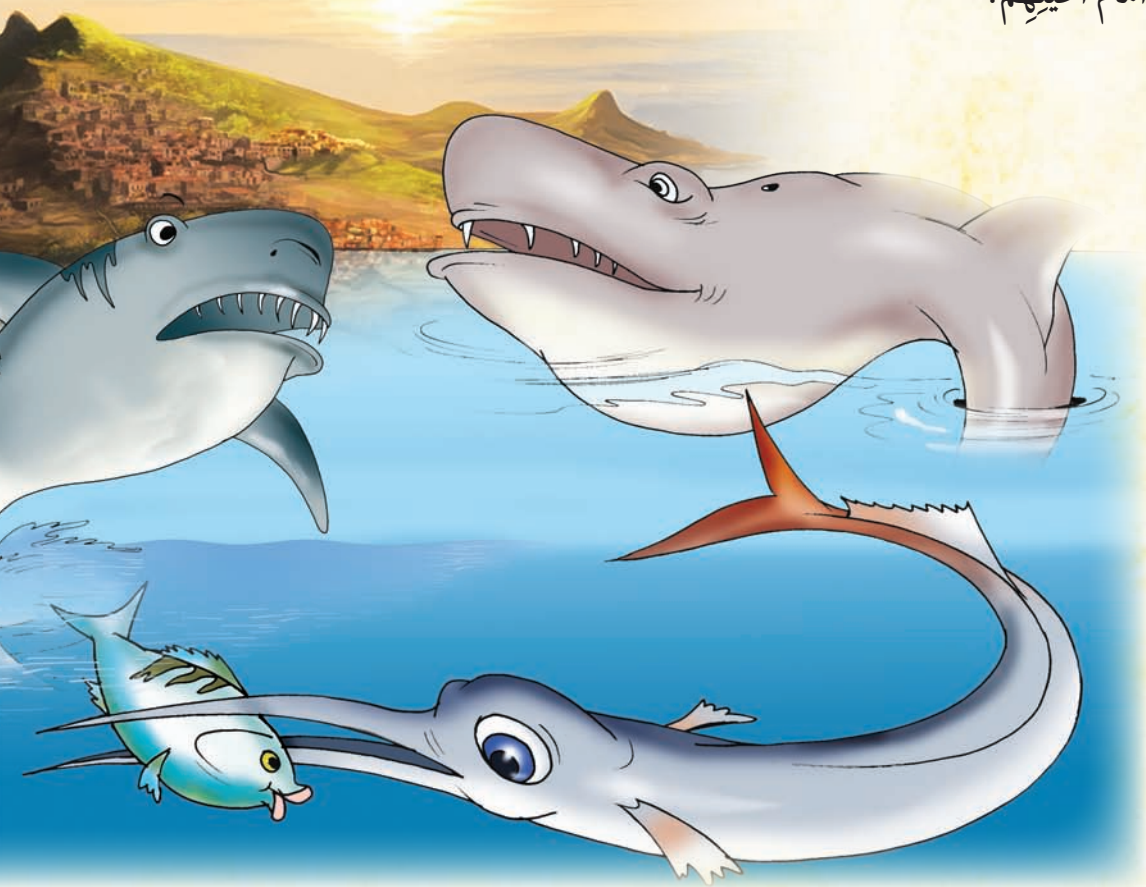

وَيَا لَهُ مِنْ بَلَاءٍ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ أَكْلِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَخْذَهُ وَصَيْدَهُ؛ لِأَنَّ الصَّيْدَ مُحَرَّمٌ فِي هَذَا الْيَوْمِ. لَقَدْ تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْعِبَادَةِ والطَّاعَةِ، وَتَمَسَّكُوا بِالْأَمْرِ بِعَدَمِ الْعَمَلِ وَالصَّيْدِ.. وَهَا هُوَ صَيْدُهُمْ وَطَعَامُ أَوْلَادِهِمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَا يُكَلِّفُهُمْ تَعَبًا وَلَا نَصَبًا.. فَهَلْ يَصْمُدُونَ أَمَامَهُ وَلَا يَرْتَكِبُونَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ؟!

إِنَّهُ وَاللهِ لَبَلَاءٌ عَظِيمٌ أَوْقَعُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ، بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وَتَرْكِهِمْ طَاعَةَ رَبِّهِمْ. وَهَذِهِ هِيَ حَالُ كُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ اللهِ وَيَكْفُرُ بِأَمْرٍ آخَرَ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ بَلَاءٍ وَامْتِحَانٍ يَكْشِفُهُ أَمَامَ نَفْسِهِ وَيَفْضَحُهُ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا إِيمَانٌ وَإِمَّا كُفْرٌ.. إِيمَانٌ يَمْلَأُ الْقَلْبَ وَتُصَدِّقُهُ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ، أَوْ كُفْرٌ يَطْمِسُ الْقَلْبَ وَتَنْطِقُ بِهِ أَقْوَالُ الْإِنْسَانِ وَأَفْعَالُهُ. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ الْأَمْرَانِ أَبَدًا فِي قَلْبٍ وَاحِدٍ.

وَزَادَ الْبَلَاءُ وَعَظُمَ بِأَنَّ الْأَسْمَاكَ كَانَتْ تَغُوصُ إِلَى قَاعِ الْبَحْرِ وَلَا تَظْهَرُ أَبَدًا بَقِيَّةَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ، فَكَانُوا يَخْرُجُونَ لِلصَّيْدِ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَكُلُّهُمْ شَوْقٌ وَلَهْفَةٌ إِلَى الْأَسْمَاكِ الضَّخْمَةِ الَّتِي كَانَتْ تَمْرَحُ أَمَامَهُمْ بِالْأَمْسِ، فَلَا يَرَوْنَ مِنْهَا شَيْئًا عَلَى الشَّاطِئِ، فَيَنْزِلُونَ إِلَى عُمْقِ الْبَحْرِ فَلَا يَرْجِعُونَ بِشَيْءٍ، وَلَا يَصِيدُونَ سَمَكَةً وَاحِدَةً تَسُدُّ جُوعَهُمْ وَجُوعَ أَوْلَادِهِمْ!

وَظَلُّوا هَكَذَا بَقِيَّةَ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ لَا يَصِيدُونَ سَمَكَةً وَاحِدَةً، بَلْ لَا يَرَوْنَ سَمَكَةً وَاحِدَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَكَأَنَّ الْبَحْرَ لَا تَسْكُنُهُ الْأَسْمَاكُ وَلَا تَعِيشُ فِيهِ الْحِيتَانُ! حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّبْتُ التَّالِي يَوْمُ التَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ.. يَوْمُ تَحْرِيمِ الْعَمَلِ وَالصَّيْدِ، كَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ الْكُبْرَى وَالِامْتِحَانُ الْعَسِيرُ.. ظَهَرَتِ الْأَسْمَاكُ الضَّخْمَةُ وَالْحِيتَانُ الْكَبِيرَةُ، وَخَرَجَتْ إِلَى الشَّاطِئِ بِأَعْدَادٍ كَثِيرَةٍ، تَلْهُو وَتَمْرَحُ، وَتَتَقَافَزُ وَتَلْعَبُ، أَمَامَ الْأَعْيُنِ الزَّائِغَةِ وَالْأَفْوَاهِ الْجَائِعَةِ وَالْبُطُونِ الْخَاوِيَةِ!!

وَيَالَهُ مِنْ بَلَاءٍ عَظِيمٍ عَظِيمٍ..

مُخَالَفَةُ أَمْرِ اللهِ

إِنَّ الْعَبْدَ الصَّالِحَ إِذَا نَزَلَ بِهِ بَلَاءٌ، أَوْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ لَجَأَ إِلَى اللهِ وَتَابَ إِلَيْهِ، وَدَعَاهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ هَذَا الْبَلَاءَ، وَأَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ تِلْكَ الشِّدَّةَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللهِ. أَمَّا الْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللهِ الرَّافِضُونَ لِشَرْعِهِ، فَلَا تَزِيدُهُمُ الْمَصَائِبُ إِلَّا قَسْوَةً فِي قُلُوبِهِمْ، وَبُعْدًا عَنْ شَرْعِ رَبِّهِمْ! فَيَزْدَادُ فِسْقُهُمْ وَتَكْثُرُ ذُنُوبُهُمْ.

وَهَـذَا هُوَ مَا حَدَثَ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ عِنْدَمَا رَأَوُا الْأَسْمَاكَ وَالْحِيتَانَ تَدْنُو مِنْهُمْ عَلَى الشَّاطِئِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ كَامِلٍ مِنَ الِاخْتِفَاءِ! لَمْ يَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَلَمْ يَسْتَغْفِرُوهُ.. لَمْ يَدْعُوهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ هَذَا الْبَلَاءَ! بَلْ كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ فَعَلُوهُ أَنْ سَبُّوا هَذِهِ الْأَسْمَاكَ وَشَتَمُوهَا!! وَتَوَعَّدُوهَا أَلَّا تُفْلِتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً!! وَهَكَذَا ازْدَادُوا غَفْلَةً، وَازْدَادَتْ قُلُوبُهُمْ قَسْوَةً، وَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ وَوَسْوَسَ لَهُمْ قَائِلًا:

- إِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاكَ الْمَاكِرَةَ تَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَصْطَادُونَ يَوْمَ السَّبْتِ؛ لِذَلِكَ تَأْتِيكُمْ آمِنَةً ظَاهِرَةً، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَدَعُوهَا تَعُودُ إِلَى قَاعِ الْبَحْرِ!
- وَمَاذَا نَفْعَلُ لَهَا وَقَدْ حُرِّمَ عَلَيْنَا الصَّيْدُ يَوْمَ السَّبْتِ؟!
- وَكَيْفَ تُطْعِمُونَ أَوْلَادَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ إِنْ لَمْ تَصْطَادُوهَا الْيَوْمَ؟!
- وَلَكِنَّنَا لَا نَرْتَكِبُ إِثْمًا، وَلَا نَفْعَلُ شَيْئًا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْنَا!
- إِذَنْ مُوتُوا جُوعًا أَنْتُمْ وَأَطْفَالُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ.. لَقَدْ نَصَحْتُكُمْ وَلَكِنَّكُمْ تَرْفُضُونَ النَّصِيحَةَ!
- إِنَّنَا لَا نَخْشَى إِلَّا هَؤُلَاءِ الْمُتَشَدِّدِينَ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ حُمَاةً لِلدِّينِ، فَلَا بُدَّ مِنْ طَرِيقَةٍ لَا تُمَكِّنُهُمْ مِنْ تَأْثِيمِنَا وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْنَا!!

وَهُنَا قَهْقَهَ الشَّيْطَانُ قَهْقَهَةً مُدَوِّيَةً، وَتَرَكَهُمْ وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ تَمَامًا أَنَّهُمْ سَيَصْطَادُونَ يَوْمَ السَّبْتِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ اللهَ وَإِنَّمَا يَخْشَوْنَ النَّاسَ!

وَبِالْفِعْلِ ـ وَقَبْلَ أَنْ يَنْقَضِيَ يَوْمُ السَّبْتِ ـ كَانَ أَحَدُهُمْ قَدْ تَسَلَّلَ سِرًّا إِلَى الشَّاطِئِ، وَأَمْسَكَ سَمَكَةً كَبِيرَةً، وَرَبَطَهَا بِحَبْلٍ طَوِيلٍ فِي وَتِدٍ دَقَّهُ عَلَى الشَّاطِئِ، ثُمَّ تَرَكَهَا فِي الْبَحْرِ وَانْصَرَفَ، عَلَى أَنْ يَأْخُذَهَا فِي صَبَاحِ الْغَدِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدِ اصْطَادَهَا أَمَامَ النَّاسِ يَوْمَ الْأَحَدِ وَلَيْسَ يَوْمَ السَّبْتِ!!

وَشَمَّ النَّاسُ رَائِحَةَ الشِّوَاءِ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَهُمْ لَا يَجِدُونَ سَمَكَةً وَاحِدَةً عَلَى الشَّاطِئِ وَلَا فِي عُمْقِ الْبَحْرِ، فَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ كَيْفَ اصْطَادَ مَا يَشْوِيهِ أَمَامَهُمُ الْآنَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا فَعَلَ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَمَدَحُوهُ؛ لِأَنَّهُ اصْطَادَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَلَمْ يُخَالِفْ أَمْرَ اللهِ فِي تَرْكِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ! وَإِنَّمَا مَدَحُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَهُ فِي السَّبْتِ التَّالِي.

وَعِنْدَمَا جَاءَ السَّبْتُ التَّالِي، وَرَأَوُا الْأَسْمَاكَ وَالْحِيتَانَ ظَاهِرَةً أَمَامَهُمْ عَلَى الشَّاطِئِ، اسْتَعَدُّوا لِتَنْفِيذِ مَا فَكَّرُوا فِيهِ وَعَزَمُوا عَلَيْهِ طِيلَةَ الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي، حَيْثُ حَفَرَ أَحَدُهُمْ حُفْرَةً كَبِيرَةً بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ، وَشَقَّ لَهَا قَنَاةً لِيُوصِلَهَا بِالْبَحْرِ، فَيُلْقِي الْمَوْجُ بِالْأَسْمَاكِ وَالْحِيتَانِ إِلَى هَذِهِ الْحُفْرَةِ عَنْ طَرِيقِ الْقَنَاةِ، وَعِنْدَمَا يَعُودُ الْمَوْجُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْبَحْرِ لَا تَسْتَطِيعُ الْأَسْمَاكُ أَنْ تَعُودَ مَعَهُ إِلَى الْبَحْرِ؛ لِضِيقِ الْقَنَاةِ الَّتِي سَدَّهَا صَاحِبُهَا جِهَةَ الْبَحْرِ، فَتَظَلُّ الْأَسْمَاكُ وَالْحِيتَانُ حَبِيسَةَ الْحُفْرَةِ إِلَى الْيَوْمِ التَّالِي، فَيَأْخُذُهَا صَاحِبُ الْحُفْرَةِ فِي صَبَاحِ الْأَحَدِ!!

وَعَمَدَ آخَرُ إِلَى شَبَكَتِهِ فَنَشَرَهَا فِي الْبَحْرِ قُرْبَ الشَّاطِئِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، حَتَّى يَعْلَقَ بِهَا السَّمَكُ يَوْمَ السَّبْتِ، فَيَضُمَّهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ يَرْفَعَهَا مُمْتَلِئَةً يَوْمَ الْأَحَدِ، وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: مَا أَجْمَلَ الصَّيْدَ الْحَلَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ!!

وَهَكَذَا تَنَوَّعَتِ الْحِيَلُ، وَاخْتَلَفَتِ الْوَسَائِلُ وَالْخُدَعُ الَّتِي يَخْدَعُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ، وَيَحْتَالُونَ بِهَا عَلَى أَمْرِ اللهِ! وَظَلُّوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي السِّرِّ زَمَانًا طَوِيلًا، حَتَّى إِذَا اعْتَادُوا الْأَمْرَ وَأَلِفُوهُ جَهَرُوا بِهِ وَفَعَلُوهُ عَلَانِيَةً، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِالْأَكْلِ فَقَطْ، بَلْ بَاعُوا صَيْدَهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ، وَرَبِحُوا مِنْهُ الْأَمْوَالَ، وَهُمْ يُنَادُونَ عَلَيْهِ يَخْدَعُونَ النَّاسَ:

ـ اشْتَرِ الصَّيْدَ الْحَلَالَ! أَطْعِمْ أَوْلَادَكَ الصَّيْدَ الْحَلَالَ!

عِقَابٌ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثِيلٌ

انْقَسَمَ الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ إِزَاءَ هَذِهِ الْمُخَالَفَةِ الْوَاضِحَةِ وَالصَّرِيحَةِ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ قَدَّمَ النُّصْحَ وَالإِرْشَادَ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُخَالِفِينَ، وَلَمْ يَتْرُكُوا النَّصِيحَةَ لَهُمْ عَلَى الرَّغْمِ مِنِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهِمْ وَسُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُمْ. وَفَرِيقٍ تَرَكَ النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ؛ يَأْسًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ الْمُحْتَالِينَ عَلَى شَرْعِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ، وَاعْتِقَادًا أَنَّ اللهَ سَيُهْلِكُهُمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا. وَلَمْ يَكْتَفِ هَذَا الْفَرِيقُ بِتَرْكِهِمُ النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُخَالِفِينَ، بَلْ عَابُوا عَلَى إِخْوَانِهِمُ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَعِظُونَ الْفَاسِقِينَ، وَيُصِرُّونَ عَلَى تَقْدِيمِ النُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ لَهُمْ، فَقَالُوا لَهُمْ كَمَا حَكَى الْقُرْآنُ:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الْأَعْرَاف:164)

فَأَجَابَهُمُ الْوَاعِظُونَ بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ:

الْأَوَّلُ: الْمَعْذِرَةُ إِلَى اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ وُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

الثَّانِي: الطَّمَعُ فِي هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ وَتَوْبَةِ أُولَئِكَ الْفَاسِقِينَ، فَلَعَلَّ اللهَ يَشْرَحُ صُدُورَهُمْ لِوَعْظِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ، فَيَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَيَتَّقُوهُ.

فَتَرَكُوهُمْ وَشَأْنَهُمْ، كَمَا تَرَكُوا الْفَاسِقِينَ وَشَأْنَهُمْ مِنْ قَبْلُ. وَهَذَا لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ ـ يَا أَحْبَابِي ـ فَالْمُسْلِمُ لَا يَتْرُكُ أَبَدًا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ مَهْمَا لَاقَى مِنَ الْعَقَبَاتِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ

النَّـاسَ دَائِمًـا أَبَدًا إِلَى اتِّبَاعِ أَوَامِرِ اللهِ وَعَدَمِ مُخَالَفَتِهَـا، وَلَا يَمَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَيْأَسَ مِنِ اسْتِجَابَةِ النَّاسِ لَهُ.

وَلَكِنَّ الْفَاسِقِينَ رَفَضُوا النَّصِيحَةَ، وَأَبَوْا الِاسْتِمَاعَ لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِـكَ عِقَـابَ اللهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ، وَكَانَ عِقَابُهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُؤْلِمًا شَـدِيدًا وَمُوجِعًـا فَرِيـدًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعَاقَبْ بِهِ أَحَـدٌ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّـابِقَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ رَبِّهَـا؛ فَقَـدْ حَوَّلَهُمُ اللهُ مِنَ الصُّورَةِ الْآدَمِيَّةِ إِلَى صُورَةٍ حَيَوَانِيَّةٍ! حَوَّلَهُمُ اللهُ إِلَى قِرَدَةٍ وَخَنَازِيرَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا بَشَرًا رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا!!

تَقُـولُ الرِّوَايَـةُ: إِنَّ الصَّالِحِيـنَ لَمَّـا رَأَوْا إِصْرَارَ الْفَاسِـقِينَ عَلَى فِسْـقِهِمْ، وَعَدَمِ قَبُولِهِمْ لِنُصْحِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ، أَقْسَمُوا أَلَّا يَبِيتُوا مَعَهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَأَلَّا تَجْتَمِعَ بُيُوتُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ فِي شَـارِعٍ وَاحِدٍ؛ تَخْوِيفًا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ الَّذِي سَـيَنْزِلُ بِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَسْتَشْعِرُونَ ذَلِكَ، فَيَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَيَتُوبُونَ إِلَى اللهِ.

وَلَكِـنَّ هَؤُلَاءِ الْفَاسِـقِينَ الضَّالِّيـنَ لَمْ تَتَحَـرَّكْ بِدَاخِلِهِمْ ذَرَّةُ خَـوْفٍ وَاحِدَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ تَشْـعُرْ نُفُوسُـهُمْ بِشُـعُورِ رَهْبَةٍ أَوْ خَشْـيَةٍ لِلهِ يَدْفَعُهُـمْ لِلتَّفْكِيرِ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَيَرْتَكِبُونَ، وَلَوْ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ!!

فَأَصَـرَّ الصَّالِحُونَ عَلَى أَنْ يَقْسِـمُوا الْقَرْيَةَ إِلَى نِصْفَيْـنِ، وَيَبْنُوا جِدَارًا حَاجِزًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَأَنْ يَفْتَحَ كُلُّ فَرِيقٍ لِنَفْسِـهِ بَابًا، وَأَنْ يَسْـتَخْدِمَهُ ذَهَابًا وَإِيَابًا.. حَتَّى جَاءَ يَوْمٌ لَمْ يُفْتَحْ فِيهِ بَابُ الْفَاسِقِينَ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَأَرَادَ الصَّالِحُونَ أَنْ يَعْرِفُوا السَّـبَبَ وَيَسْـتَطْلِعُوا الْخَبَرَ، فَطَرَقُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَلَمْ يَفْتَحُوا لَهُمْ، فَنَادَوْهُمْ بِأَعْلَى أَصْوَاتِهِمْ فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِمْ، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ سُلَّمًا عَلَى السُّورِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ،

وَصعِـدَ عَلَيْهِ لِيَرَاهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ، فَإِذَا بِهِ يَرَى مُجْتَمَعًا مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَعْدُو بَعْضُهُمْ خَلْفَ بَعْضٍ!

فَنَـزَلَ وَأَخْبَرَ الْقَـوْمَ، فَفَتَحُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَأَخَذَتِ الْقِـرَدَةُ تَجْرِي إِلَى أَقْرِبَائِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِمْ وَيَبْكُونَ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ. فَيَقُولُ لَهُمُ الصَّالِحُونَ:

ـ أَلَمْ نَنْهَكُمْ عَنْ فِسْقِكُمْ، وَنُحَذِّرْكُمْ عَذَابَ رَبِّكُمْ؟!

فَتُشِيرُ الْقِرَدَةُ بِرُءُوسِهَا أَنْ بَلَى.

ثُـمَّ انْطَلَقَـتِ الْقِـرَدَةُ وَالْخَنَازِيـرُ إِلَى الصَّحْـرَاءِ يَجْـرِي بَعْضُهُمْ خَلْـفَ بَعْضٍ، وَيَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَلَمْ يَرْجِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْقَرْيَةِ مَرَّةً أُخْـرَى؛ لِأَنَّهُمْ هَلَكُوا جَمِيعًا، فَصَارُوا عِبْرَةً لِـكُلِّ الْقُرَى مِنْ حَوْلِهِمْ، وَلِكُلِّ الْأُمَمِ مِنْ بَعْدِهِمْ.

أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم
مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن
شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ
﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ
لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ
طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ
مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ
أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ... ﴾ (يس: 13 ـ 22)

الْقَرْيَةُ الظَّالِمُ أَهْلُهَا

أَنْعَمَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَى قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى، فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ، وَخَيْرَاتٍ وَفِيرَةٍ، فَعَاشَ أَهْلُهَا فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ، وَسَلَامٍ وَاطْمِئْنَانٍ.. يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَيُتَاجِرُونَ وَيَرْبَحُونَ، فَاتَّسَعَتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَكَبُرَتْ قَرْيَتُهُمْ حَتَّى صَارَتْ مَدِينَةً عَامِرَةً بِأَهْلِهَا، وَصَارَ لَهَا قَدْرُهَا وَمَكَانَتُهَا بَيْنَ مُدُنِ عَصْرِهَا وَزَمَانِهَا.

وَلَكِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَابَلُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ بِالْجُحُودِ وَالْكُفْرَانِ، وَعَبَدُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، فَكَانُوا لَا يَسْجُدُونَ إِلَّا لَهَا، وَلَا يَنْحَنُونَ إِلَّا أَمَامَهَا، وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا غَيْرَهَا! وَكَانُوا يُقَدِّمُونَ لَهَا الْقَرَابِينَ، وَيُزَيِّنُونَ أَعْنَاقَهَا بِكُلِّ غَالٍ وَثَمِينٍ؛ طَلَبًا لِكَثْرَةِ الْبَرَكَةِ وَزِيَادَةِ النِّعْمَةِ، وَدَفْعًا لِكُلِّ سُوءٍ وَشَرٍّ وَنِقْمَةٍ!!

وَقَدِ اتَّخَذُوا لِآلِهَتِهِمْ بُيُوتًا وَاسِعَةً وَمَعَابِدَ، يَقْصِدُهَا مِنْهُمْ كُلُّ دَاعٍ وَمُسْتَغِيثٍ وَعَابِدٍ؛ فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا أَرَادَ التِّجَارَةَ، أَوْ خَافَ عَلَى مَالِهِ مِنَ الْخَسَارَةِ، ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الْآلِهَةِ وَانْحَنَى أَمَامَهَا، ثُمَّ قَبَّلَ الْأَرْضَ تَحْتَ أَقْدَامِهَا، ثُمَّ دَعَاهَا بِمَا يُرِيدُ، ثُمَّ قَدَّمَ لَهَا مِنَ الْهَدَايَا كُلَّ طَرِيفٍ

وَجَدِيـدٍ!! وَكَانَتِ الْوَاحِدَةُ مِنْهُـنَّ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنَ الْأَشْـرَافِ أَحَدًا، أَوْ أَنْ تُـرْزَقَ مِنْ حَمْلِهَا وَلَدًا، أَوْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِـهَا كَيْـدًا، ذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِ الْآلِهَةِ حَامِلَةً مَعَهَـا كُلَّ مَا لَذَّ وَطَـابَ، مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ وَالشَّـرَابِ، وَالْهَدَايَا الْفَاخِـرَةِ وَالثِّيَابِ، فَقَدَّمَتْـهُ لَهَا بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ خَاشِـعَةٍ، وَعَيْنٍ بَاكِيَةٍ دَامِعَةٍ، ثُـمَّ تَجْتَهِدُ فِي الدُّعَاءِ، لَعَلَّهَا تَظْفَرُ بِمَا تَشَاءُ!!

هَكَـذَا كَانَـتْ حَالُ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ.. رِجَالًا وَنِسَـاءً، كِبَـارًا وَصِغَارًا.. يَكْفُرُونَ بِاللهِ جِهَارًا، وَيُشْـرِكُونَ بِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا! فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الرُّسُـلُ؛ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ طَرِيقَ الْهِدَايَةِ، وَتُحَذِّرَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ وَغِوَايَةٍ.

وَقَـدْ أَرْسَـلَ اللهُ إِلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ثَلَاثَةَ رُسُـلٍ.. أَمَرَ اثْنَيْنِ مِنْهُـمْ بِالدُّخُولِ إِلَى الْقَرْيَـةِ، وَدَعْوَةِ أَهْلِهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِلثَّالِثِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَأَوَى إِلَى كَهْفٍ فِي جَبَلٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الْقَرْيَةِ يَعْبُدُ فِيهِ رَبَّهُ، وَيَنْتَظِرُ فِيهِ أَمْرَهُ، لِيَلْحَقَ بِصَاحِبَيْهِ.

فَلَمَّا دَخَلَ هَذَا الرَّسُولُ إِلَى الْكَهْفِ، سَمِعَ صَوْتَ رَجُلٍ يَتَعَبَّدُ، وَعَرَفَ مِنْ دُعَائِهِ وَكَلَامِهِ أَنَّهُ مُسْـلِمٌ مُوَحِّدٌ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ السَّـلَامَ، وَسَـأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ نَجَّارٌ فَقِيرٌ اسْـمُهُ حَبِيبٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَمَامَ الْجَبَلِ، وَأَنَّهُ يَكْسِـبُ قُوتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ عَمَـلِ يَدِهِ، فَيَدَّخِرُ مِنَ الزَّادِ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، وَيَتَصَدَّقُ بِالْبَاقِي، ثُمَّ يَأْتِي إِلَى هَذَا الْكَهْفِ لِيَخْلُوَ فِيهِ بِنَفْسِـهِ، مُتَأَمِّلًا عَظَمَةَ الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ، وَمُتَدَبِّرًا بَدِيعَ خَلْقِهِ وَصُنْعِهِ، وَمُتَفَكِّرًا فِيمَا عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنَ الصُّخُورِ وَالْأَحْجَارِ، لَا تُدْرِكُ فَرْقًـا بَيْـنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَا تَشْـعُرُ بِمَا حَوْلَهَا مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَأَشْـجَارٍ، وَسُـهُولٍ وَمَرَاعٍ وَأَنْهَارٍ! فَيَرَاهُمْ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ وَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَيَدْعُو لَهُمْ.

وَهُنَا سَأَلَهُ الرَّسُولُ قَائِلًا:

- وَبِمَ تَدْعُو اللهَ فِي خَلْوَتِكَ؟

فَأَجَابَهُ النَّجَّارُ الْفَقِيرُ:

- لَيْسَـتْ لِي إِلَّا دَعْـوَةٌ وَاحِدَةٌ أَدْعُو اللهَ بِهَـا كُلَّمَا جِئْتُ إِلَى هَـذَا الْكَهْفِ، وَهِيَ أَنْ يُنْقِـذَ اللهُ أَهْـلَ قَرْيَتِي مِمَّا هُـمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَضَلَالَـةٍ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِـمْ مِنْ عِنْدِهِ

بِرِسَالَةٍ، يُخْرِجُهُمْ بِهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْفَسَادِ، إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى وَالرَّشَادِ.

فَرَبَّتَ الرَّسُولُ عَلَى كَتِفَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللهَ قَدِ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ، وَأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ، أَرْسَلَهُ اللهُ هُوَ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ، وَقَدْ أَذِنَ لِصَاحِبَيْهِ فِي الدَّعْوَةِ، وَأَنَّهُمَا الْآنَ فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى الْقَرْيَةِ، وَأَنَّهُ سَيَلْحَقُ بِهِمَا عِنْدَمَا يَأْذَنُ لَهُ رَبُّهُ.

فَفَرِحَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَيَّمَا فَرَحٍ، وَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَى أَهْلِ قَرْيَتِهِ مِنْ نِعْمَةِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَدَعَا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنُوا اسْتِقْبَالَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَأَلَّا يَكْفُرُوا بِهَا كَمَا كَفَرُوا بِغَيْرِهَا مِنْ نِعَمٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى.

الرُّسُلُ الثَّلَاثَةُ

كَانَتْ أَسْمَاءُ الرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ: صَادِقًا، وَصَدُوقًا، وَشَلُومًا ـ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ ـ أَوَى شَلُومٌ إِلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ النَّجَّارِ الْفَقِيرِ، وَذَهَبَ صَادِقٌ وَصَدُوقٌ إِلَى الْقَرْيَةِ، وَأَحْسَنَا لِأَهْلِهَا الْحَدِيثَ، وَأَلَانَا لَهُمُ الْجَانِبَ، وَتَلَطَّفَا مَعَهُمْ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ.

وَأَخَذَ الرَّسُولَانِ يُبَيِّنَانِ لِلنَّاسِ أَنَّ الْحِجَارَةَ الصَّمَّاءَ لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُعْطِي وَلَا تَمْنَعُ، وَأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْلِبَ لِنَفْسِهَا نَفْعًا أَوْ تَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا، فَكَيْفَ تَمْلِكُ لِغَيْرِهَا خَيْرًا أَوْ شَرًّا؟!

فَفَهِمَ النَّاسُ قَصْدَهُمَا، وَفَطِنُوا إِلَى هَدَفِهِمَا، فَانْفَضُّوا عَنْهُمَا، وَأَخَذُوا يُحَذِّرُونَ الْقَرْيَةَ مِنْهُمَا، وَيَقُولُونَ:

ـ آلِهَتُنَا.. وَآلِهَةُ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا.. كَيْفَ تَعِيبُونَهَا؟! وَبِالْعَجْزِ تَتَّهِمُونَهَا؟!

هَكَذَا بِسُرْعَةٍ، وَقَبْلَ أَنْ يُتِمَّ الرَّسُولَانِ مَوْعِظَتَهُمَا، وَيُبَلِّغَا رِسَالَتَهُمَا، انْقَلَبَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا.. يُحَذِّرُونَ الْقَرْيَةَ مِنْهُمَا، وَيَتَّهِمُونَهُمَا بِالْكَذِبِ. فَعَزَّزَ اللهُ مَوْقِفَ رَسُولَيْهِ وَأَوْحَى إِلَى شَلُومٍ أَنِ الْحَقْ بِصَاحِبَيْكَ، وَادْعُوَا جَمِيعًا أَصْحَابَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ الْوَاحِدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

اجْتَمَعَ الرُّسُلُ الثَّلَاثَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْقَرْيَةِ، وَذَهَبُوا إِلَى بَيْتِ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ، وَالْأَصْنَامِ الْمَصْنُوعَةِ بِأَيْدِي النَّاسِ وَمَعَاوِلِهِمْ، وَآلَاتِهِمْ وَمَطَارِقِهِمْ، فَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرُوا مَلِكَهُمْ بِأَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ.

وَفِي السَّاحَةِ الْوَاسِعَةِ أَمَامَ الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ اسْتَوْقَفَ الْحُرَّاسُ الرُّسُلَ، وَمَنَعُوهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ إِلَى الْمَعْبَدِ، وَتَجَمَّعَ النَّاسُ حَوْلَهُمْ يُحَذِّرُونَهُمْ أَنْ يَمَسُّوا الْآلِهَةَ بِسُوءٍ، أَوْ أَنْ يَذْكُرُوهَا بِمَا لَا يَلِيقُ.

وَجَاءَ الْمَلِكُ وَالْأَعْوَانُ، وَالْأُمَرَاءُ وَالْكُهَّانُ، وَوَجَّهَ الْمَلِكُ سُؤَالَهُ إِلَى الرُّسُلِ:

- مَنْ أَنْتُمْ؟ وَمَاذَا تُرِيدُونَ؟

فَأَجَابَ الرُّسُلُ الْكِرَامُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

- إِنَّا رُسُلُ اللهِ إِلَيْكَ، وَإِلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ.. نَدْعُوكُمْ جَمِيعًا إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَعِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَأَحْسَنَ خَلْقَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ وَوَسَّعَ أَرْزَاقَكُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِمَا لَا يُعَدُّ مِنَ النِّعَمِ وَلَا يُحْصَى،

وَخَلَقَ الْكَوْنَ كُلَّهُ مِنْ أَجْلِكُمْ، وَسَخَّرَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا لَكُمْ، فَكَيْفَ بَعْدَ كُلِّ هَذَا تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَتَشْكُرُونَ سِوَاهُ؟!

فَانْطَلَقَ الْكَاهِنُ الْأَكْبَرُ يَصْرُخُ:

- كَذَّابُونَ.. كَذَّابُونَ!! مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا! فَلِمَاذَا اخْتَارَكُمُ اللهُ أَنْتُمْ مِنْ بَيْنِنَا؟! لِمَاذَا أَوْحَى إِلَيْكُمْ أَنْتُمْ وَلَمْ يُوحِ إِلَى الْمَلِكِ؟! هَلْ أَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ؟! إِنَّكُمْ كَذَّابُونَ! إِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ مِنْ عِنْدِهِ شَيْئًا.

فَأَجَابَهُ الرُّسُلُ الْكِرَامُ:

- رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَلَوْ كُنَّا نَكْذِبُ عَلَيْهِ لَانْتَقَمَ مِنَّا أَشَدَّ الِانْتِقَامِ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أَرْسَلَنَا بِهِ إِلَيْكُمْ. أَمَّا تَصْدِيقُكُمْ بِنَا أَوْ تَكْذِيبُكُمْ لَنَا فَمَرَدُّهُ إِلَى اللهِ؛ فَهُوَ الَّذِي يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

فَمَا كَانَ مِنَ الْكُبَرَاءِ وَالْأَعْيَانِ إِلَّا أَنْ قَالُوا بَعْدَمَا أَذِنَ لَهُمُ الْمَلِكُ:

- لَقَدْ تَشَاءَمْنَا مِنْكُمْ وَمِنْ وُجُودِكُمْ بَيْنَنَا، فَمُنْذُ رَأَيْنَاكُمْ لَمْ نَرَ خَيْرًا، وَلَئِنْ أَصَابَتْنَا اللَّعْنَةُ أَوْ حَلَّتْ بِنَا النِّقْمَةُ لَيَكُونَنَّ بِسَبَبِكُمْ. فَانْتَهُوا عَمَّا تَقُولُونَ وَإِلَّا رَجَمْنَاكُمْ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى الْمَوْتِ!!

فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الرُّسُلُ الْكِرَامُ قَائِلِينَ:

- أَتَتَشَاءَمُونَ مِنْ سَمَاعِكُمُ الْحَقَّ وَدَعْوَتِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ؟! أَتُهَدِّدُونَنَا بِالْقَتْلِ؛ لِأَنَّنَا نَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَتَرْكِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَضَلَالٍ؟! إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ مُسْرِفُونَ.

وَهُنَا حَدَثَ حَادِثٌ جَذَبَ الْأَنْظَارَ كُلَّهَا إِلَيْهِ، وَعَلَّقَ الْعُيُونَ كُلَّهَا بِهِ! فَمَاذَا كَانَ هَذَا الْحَادِثُ؟

هَذَا مَا سَنَعْرِفُهُ فِي الْقِصَّةِ التَّالِيَةِ.

الصَّيْحَةُ الْقَاتِلَةُ

بَعْدَمَا هَدَّدَ كُبَرَاءُ الْقَرْيَةِ وَأَعْيَانُهَا رُسُلَهُمُ الثَّلَاثَةَ بِالرَّجْمِ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ، تَعَالَتْ صَيْحَاتُ الْمُجْتَمِعِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ تَأْيِيدًا لِهَذَا التَّهْدِيدِ، وَارْتَفَعَتْ هُتَافَاتُهُمْ تَأْكِيدًا عَلَى هَذَا الْوَعِيدِ!

وَهُنَا شَقَّ هَذِهِ الْجُمُوعَ الْغَفِيرَةَ، وَتِلْكَ الصُّفُوفَ الْكَثِيرَةَ، رَجُلٌ ضَعِيفُ الْبِنْيَةِ رَثُّ الْهَيْئَةِ، يَعْرِفُهُ كُلُّ أَهْلِ الْقَرْيَةِ.. إِنَّهُ حَبِيبٌ النَّجَّارُ.. ذَلِكُمُ الْفَقِيرُ الْعَابِدُ وَالْمُتَصَدِّقُ الزَّاهِدُ.. جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، وَيَشُقُّ الصُّفُوفَ شَقًّا؛ خَوْفًا عَلَى أَهْلِ قَرْيَتِهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَنِقْمَتِهِ، إِنْ هُمْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَطَرَدُوهُمْ، أَوْ ثَارُوا عَلَيْهِمْ وَقَتَلُوهُمْ.

فَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى السَّاحَةِ الْوَاسِعَةِ أَمَامَ الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ، حَتَّى رَأَى الْحُرَّاسَ يُحِيطُونَ بِالرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ، وَشَاهَدَ الْمَلِكَ وَقَدْ نُصِبَ لَهُ كُرْسِيٌّ أَمَامَ مَدْخَلِ الْمَعْبَدِ، وَحَوْلَهُ الْأُمَرَاءُ وَالْأَعْوَانُ، فَوَقَفَ أَمَامَ الْمَلِكِ مُبَاشَرَةً وَأَعْطَاهُ ظَهْرَهُ، وَتَوَجَّهَ إِلَى أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ بِوَجْهِهِ، وَأَخَذَ يَهْتِفُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ:

- يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ.. يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ.

فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ الْأَنْظَارُ، وَتَعَلَّقَتْ بِهِ الْأَبْصَارُ، وَسَكَتَ الْجَمِيعُ يَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِأَقْصَى طَاقَةٍ لَدَيْهِ:

- يَا قَوْمِ.. إِنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ لَا يَطْلُبُونَ مِنْكُمْ مَالًا، وَلَا يَسْأَلُونَكُمْ أَجْرًا عَلَى مَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَةِ اللهِ إِلَيْكُمْ.. إِنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَكُمْ عَطَايَا، وَلَا يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ هَدَايَا، إِنَّمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ.

وَهُنَا جَرَى نَحْوَهُ الْكَاهِنُ الْأَكْبَرُ، وَسَأَلَهُ فِي حِدَّةٍ مُحَذِّرًا:

- أَتَتْرُكُ دِينَ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ؟ أَتَرْفُضُ عِبَادَةَ الْآلِهَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَعْبُدُهَا كُلُّ هَذِهِ الْجُمُوعِ؟

فَأَجَابَهُ بِثَبَاتٍ وَاطْمِئْنَانٍ قَائِلًا:

- وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكَ، وَخَلَقَ كُلَّ هَذِهِ الْجُمُوعِ الَّتِي حَوْلَكَ؟! إِنَّنِي لَوِ اتَّخَذْتُ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى لَأَكُونَنَّ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ؛ إِذْ كَيْفَ أَعْبُدُ آلِهَةً لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ؟!

ثُمَّ مَشَى بِثِقَةٍ وَثَبَاتٍ تِجَاهَ الرُّسُلِ، حَتَّى وَقَفَ بِإِزَائِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ وَلِلْجُمُوعِ مِنْ حَوْلِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ:

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ (يس: 25)

فَتَرَكَ الْحُرَّاسُ الرُّسُلَ، وَأَمْسَكُوا بِهِ وَقَيَّدُوهُ، وَعَلَى الْأَرْضِ أَمَامَ الْجُمُوعِ الْغَاضِبَةِ طَرَحُوهُ، فَانْقَضَّ النَّاسُ عَلَيْهِ وَضَرَبُوهُ، وَبِأَقْدَامِهِمْ وَنِعَالِهِمْ وَطِئُوهُ، حَتَّى أَزْهَقُوا رُوحَهُ وَقَتَلُوهُ، وَهُوَ يَقُولُ:

- اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ!!

يَدْعُو لَهُمْ وَهُمْ يَضْرِبُونَهُ، وَيَتَمَنَّى هِدَايَتَهُمْ وَهُمْ يَقْتُلُونَهُ! فَمَاتَ شَهِيدًا، وَانْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ رَاضِيًا سَعِيدًا، فَأَسْكَنَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَرَزَقَهُ مِنْ نَعِيمِهَا مَا كَانَ يَتَمَنَّى؛

فَالشُّهَدَاءُ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَلَمَّا رَأَى الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا، قَالَ كَمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾ (يس: 26، 27)

يَحْرِصُ عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ قَتَلُوهُ! يَحْرِصُ عَلَى هِدَايَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ.

وَلَكِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ كَانُوا ذَوِي قُلُوبٍ قَاسِيَةٍ، وَعُقُولٍ جَامِدَةٍ، وَمَشَاعِرَ مُتَبَلِّدَةٍ، فَاسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللهِ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ كَمَا حَقَّ عَلَى الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِهِ صَيْحَةً عَظِيمَةً، وَصَوْتًا قَوِيًّا شَدِيدًا.. لَمْ تُطِقْهُ أَسْمَاعُهُمْ، وَلَمْ تَتَحَمَّلْهُ أَجْسَادُهُمْ، فَأُزْهِقَتْ أَرْوَاحُهُمْ، وَأُخْمِدَتْ أَنْفَاسُهُمْ!! صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ أَهْلَكَتْ أَصْحَابَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ عَنْ آخِرِهِمْ! فَلَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ، وَلَا جَسَدٌ يَرْجُفُ، وَلَا نَفَسٌ يَتَرَدَّدُ فِي صَدْرٍ، بَلْ صَارُوا جَمِيعًا جُثَثًا هَامِدَةً لَيْسَ لَهَا عِنْدَ اللهِ وَزْنٌ وَلَا قَدْرٌ.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا
يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ
﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟
عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ
أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ
رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ
أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الْقَلَم: 17 ـ 33)

الرَّجُلُ الصَّالِحُ

فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَسَالِفِ الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ، كَانَ هُنَاكَ رَجُلُ بِرٍّ وَإِحْسَانٍ، يَعْرِفُ اللهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَيَعْرِفُ حَقَّ اللهِ فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ. وَكَانَ اللهُ قَدْ رَزَقَهُ أَرْضًا خِصْبَةً صَالِحَةً لِلزِّرَاعَةِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ نَهْرٍ جَارٍ، وَرَزَقَهُ ثَلَاثَةً مِنَ الْبَنِينَ ذَوِي سَوَاعِدَ قَوِيَّةٍ وَأَبْدَانٍ فَتِيَّةٍ.

فَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ لَا يَفْتُرُ لِسَانُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ، بَلْ بِالْعَمَلِ أَيْضًا، فَالشُّكْرُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَشُكْرُ النِّعْمَةِ إِنَّمَا يَكُونُ بِتَوْظِيفِهَا فِي طَاعَةِ اللهِ وَاسْتِغْلَالِهَا فِي مَرْضَاتِهِ.

وَلِذَلِكَ قَرَّرَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَنْ يَزْرَعَ مَا عِنْدَهُ مِنْ أَرْضٍ، وَأَنْ يُحَوِّلَهَا مِنْ أَرْضٍ جَرْدَاءَ إِلَى جَنَّةٍ فَيْحَاءَ بِمُسَاعَدَةِ أَبْنَائِهِ الثَّلَاثَةِ، فَأَخَذُوا يَشُقُّونَ الْأَرْضَ بِالْمِحْرَاثِ، وَيَبْذُرُونَ بِهَا الْبُذُورَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ وَلَوْنٍ، وَيَرْوُونَهَا بِالْمَاءِ مِنَ النَّهْرِ الْقَرِيبِ، وَاجْتَهَدُوا فِي ذَلِكَ غَايَةَ الِاجْتِهَادِ، وَالْأَبُ الصَّالِحُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ يُذَكِّرُ أَبْنَاءَهُ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَدُعَائِهِ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، فَتُنْبِتَ أَرْضُهُمْ نَبَاتًا حَسَنًا، وَتُثْمِرَ ثَمَرًا طَيِّبًا لَذِيذًا.

وَكَانُوا قَدْ زَرَعُوا أَرْضَهُمْ فَاكِهَةً وَعِنَبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَلَمَّا كَانَ شُكْرُ النِّعْمَةِ يَزِيدُهَا وَيُنَمِّيهَا، فَقَدْ حَقَّقَ اللهُ لَهُمْ مَا أَرَادُوا، وَرَزَقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، فَجَاءَ الْمَحْصُولُ وَفِيرًا، وَزَادَ الْخَيْرُ كَثِيرًا كَثِيرًا.

وَفَرِحَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ وَأَبْنَاؤُهُ الثَّلَاثَةُ أَيَّمَا فَرَحٍ بِهَذَا الْعَطَاءِ الْإِلَهِيِّ،

وَهَـذِهِ النِّعَمِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَغْمُرُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاتَّجَهُوا جَمِيعًا إِلَى اللهِ بِالشُّـكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى كُلِّ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ فَيْضٍ وَعَطَاءٍ.

وَبَعْدَ أَنْ جَمَعُوا الْمَحْصُولَ، وَتَحَقَّقَ لَهُمُ الْمَأْمُولُ، أَخْبَرَهُمْ أَبُوهُمْ بِأَنَّ لِلْفُقَرَاءِ فِي ثَمَرِهِمْ حَقًّا، وَأَنَّ لِلْمَسَاكِينِ فِي مَحْصُولِهِمْ رِزْقًا، فَلَا يَجُوزُ أَبَدًا أَنْ يُغَادِرُوا الْحَدِيقَةَ بِمَحْصُولِهِـمْ قَبْلَ أَنْ يُعْطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُخْرِجُوا لِلْفُقَرَاءِ نَصِيبَهُمْ مِـنْ أَجْـوَدِ وَأَطْيَبِ الثَّمَرِ، وَأَنْ يُرْسِـلُوا إِلَيْهِمْ حَتَّى يَأْتُوا وَيَأْخُـذُوا حَقَّهُمْ، وَمَنْ لَمْ

يَسْـتَطِعِ الْمَجِيءَ مِنْهُمْ لِمَرَضٍ أَوْ عَجْزٍ فَلْيَحْمِلُوا إِلَيْهِ حَقَّهُ فِي دَارِهِ، وَلْيُعْطُوهُ لَهُ فِي أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ.

وَهُنَا قَالَ الِابْنُ الْأَكْبَرُ لِأَبِيهِ:

- يَا أَبَانَا لَقَدْ تَعِبْنَا كَثِيرًا فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ، وَبَذَلْنَا فِيهَا مِنَ الْجُهْدِ وَالْعَرَقِ مَا أَنْتَ بِهِ عَلِيمٌ؛ فَقَدْ كُنْتَ تُشَارِكُنَا الْكَدَّ وَالتَّعَبَ، وَالسَّهَرَ وَالنَّصَبَ، أَفَبَعْدَ كُلِّ هَذَا الْعَنَاءِ وَالشَّقَاءِ نُعْطِي ثَمَرَةَ جُهْدِنَا وَتَعَبِنَا لِلْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ؟!

فَنَظَـرَ الْأَبُ الْمُؤْمِـنُ إِلَى ابْنَيْـهِ الْآخَرَيْـنِ، فَوَجَدَهُمَا صَامِتَيْـنِ كَأَنَّهُمَا مُوَافِقَانِ عَلَى كَلَامِ أَخِيهِمَا، فَوَجَّهَ حَدِيثَهُ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا وَقَالَ:

- إِنَّ مَـا نَحْنُ فِيهِ مِـنْ نِعْمَةٍ يَا أَبْنَائِي مِنَ اللهِ وَحْـدَهُ، فَهُوَ الَّذِي رَزَقَنَا هَـذِهِ الْأَرْضَ، وَأَجْـرَى حَوْلَهَا النَّهْـرَ، وَرَزَقَنَا الصِّحَّـةَ وَالْعَافِيَةَ لِزِرَاعَتِهَـا، وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ فِيهَا هَذِهِ الْأَشْـجَارَ، وَمَلَأَهَا بِهَذِهِ الثِّمَارِ، وَجَعَلَهَا طَيِّبَةَ الْمَذَاقِ، وَهُوَ نَفْسُـهُ الَّذِي أَمَرَنَا بِإِخْرَاجِ حَقِّ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ. أَيُعْقَلُ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ أَنْ نَعْصِيَ أَمْرَ الْمُنْعِمِ فِي إِعْطَاءِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَـاكِينِ حَقَّهُمْ؟! وَهُوَ حَقٌّ يَسِـيرٌ لَا يَنْقُصُ الْمَالَ، بَلْ يَزِيـدُهُ وَيُنَمِّيهِ، بِحِفْظِهِ مِنَ التَّلَفِ وَالْخَسَارَةِ، وَبِدَوَامِهِ وَبَرَكَتِهِ.

فَخَجِلَ الْأَبْنَاءُ الثَّلَاثَةُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا لِأَبِيهِمْ:

- لَا تَغْضَبْ مِنَّا يَا أَبَانَا، فَلَنْ نَعْصِيَ لَكَ أَمْرًا، فَالرَّأْيُ رَأْيُكَ وَالْمَالُ مَالُكَ.

وَأَخْرَجُوا حَقَّ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ، فَجَاءُوهُمْ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ، وَأَخَذُوا حَقَّهُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ بِأَنْ يُبَارِكَ لَهُ فِي جَنَّتِهِ وَأَوْلَادِهِ.

وَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ يَشْكُرُ اللهَ أَنْ وَفَّقَهُ لِأَدَاءِ حَقِّهِ وَشُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَيَدْعُوهُ أَنْ يَحْفَظَ أَبْنَاءَهُ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِهِمْ وَشَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

الْأَبْنَاءُ الْجَاحِدُونَ

حَفِظَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جَنَّةَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنَ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ النَّبَاتَاتِ، وَبَارَكَ لَهُ فِيهَا وَفِي ثِمَارِهَا. وَأَصْبَحَ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ يَحْفَظُونَ الطَّرِيقَ إِلَى جَنَّةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عِنْدَ كُلِّ مَوْسِمِ حَصَادٍ، فَيَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْهُمُ الْحُضُورَ يَصِلُهُ حَقُّهُ إِلَى بَيْتِهِ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

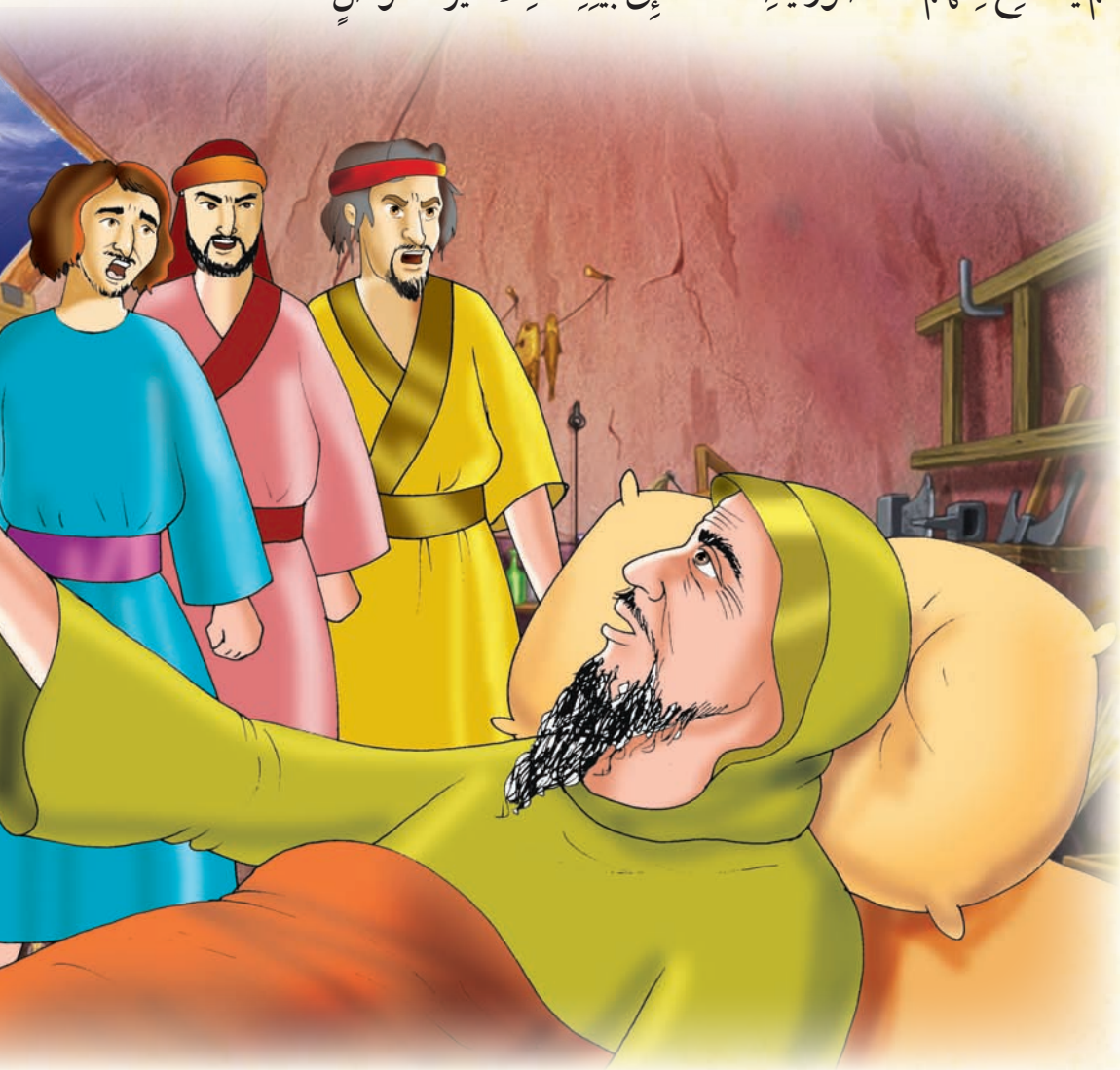

وَاسْتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ سِنِينَ عَدَدًا، حَتَّى حَضَرَتِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ الْوَفَاةُ، وَنَامَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا وَهُوَ يُوصِي أَبْنَاءَهُ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ؛ حَتَّى يَحْفَظَ اللهُ عَلَيْهِمْ جَنَّتَهُمْ وَيُبَارِكَ لَهُمْ فِيهَا.

حَزِنَ الْأَبْنَاءُ لِفِرَاقِ أَبِيهِمْ، وَحَزِنَ كَذَلِكَ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ حُزْنًا شَدِيدًا لِمَوْتِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ اللهَ لَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَيَرْجُونَ أَنْ يَسِيرَ أَبْنَاؤُهُ فِيهِمْ سِيرَةَ أَبِيهِمْ، فَيُعْطُونَهُمْ وَلَا يَمْنَعُونَهُمْ، وَيَمْنَحُونَهُمْ وَلَا يَحْرِمُونَهُمْ.

وَعِنْدَمَا حَانَ مِيعَادُ أَوَّلِ مَوْسِمِ حَصَادٍ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، اجْتَمَعَ الْأَبْنَاءُ الثَّلَاثَةُ لَيْلَةَ الْحَصَادِ؛ لِيُنَظِّمُوا عَمَلِيَّةَ الْحَصَادِ، وَلِيُرَتِّبُوا كَيْفَ سَيَجْمَعُونَ الْمَحْصُولَ، وَكَيْفَ سَيَبِيعُونَهُ، وَهُنَا قَالَ الِابْنُ الْأَكْبَرُ:

- إِنَّ أَبَانَا كَانَ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، بِحُجَّةِ أَنَّهُ حَقُّهُمْ، وَلَا أَرَى لَهُمْ حَقًّا فِيمَا يَأْخُذُونَ! وَقَدْ كَانَ أَبُونَا مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ خَطَأً جَسِيمًا!

فَوَافَقَهُ الْأَخُ الْأَصْغَرُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ:

- لَوْ مَنَعْنَاهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ لَتَوَافَرَ لَدَيْنَا الثَّمَرُ الْكَثِيرُ، وَلَرَبِحْنَا مِنْ بَيْعِهِ الْمَالَ الْوَفِيرَ، وَيَكْفِي الْفُقَرَاءَ مَا أَخَذُوهُ فِي حَيَاةِ أَبِينَا، الَّذِي أَضَاعَ عَلَيْنَا الْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ بِحُبِّهِ لَهُمْ، وَعَطْفِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِعْطَائِهِمْ مَا لَا يَسْتَحِقُّونَ!

فَاعْتَرَضَ أَوْسَطُهُمْ وَقَالَ:

- لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُنْكِرَ حَقَّ الْفُقَرَاءِ، فَلْنَشْكُرِ اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ عَطَاءٍ، وَلْنُؤَدِّ حَقَّ الْفُقَرَاءِ كَمَا أَمَرَ، وَلَا نُخَالِفْ وَصِيَّةَ أَبِينَا.

فَانْفَجَرَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ قَائِلًا بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ:

- أَيَّ حَقٍّ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ؟! أَيَتْعَبُونَ كَمَا نَتْعَبُ، وَيَسْهَرُونَ كَمَا نَسْهَرُ، وَيَكِدُّونَ فِي الْأَرْضِ كَمَا نَكِدُّ؟! لَقَدْ كَانَ أَبُونَا عَلَى خَطَإٍ، وَلَنْ نُكَرِّرَ خَطَأَهُ أَبَدًا!!

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ الْأَوْسَطُ:

- أَخْشَى أَنْ يُصِيبَنَا عِقَابُ اللهِ وَعَذَابُهُ إِنْ نَحْنُ ضَيَّعْنَا حَقَّ الْفُقَرَاءِ.

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَخُوهُ الْأَصْغَرُ قَائِلًا:

- لَا تَقُلْ حَقَّ الْفُقَرَاءِ، فَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَنَا حَقٌّ! أَمَّا خَوْفُكَ مِنْ عِقَابِ اللهِ فَإِنَّنَا نَذْكُرُ اللهَ فِي كُلِّ حِينٍ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَعَدَمُ إِعْطَائِنَا الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ مِنْ رِزْقِنَا وَرِزْقِ أَوْلَادِنَا لَيْسَ ظُلْمًا لَهُمْ؛ فَهُمْ لَا يَكِدُّونَ فِي الْأَرْضِ كَمَا نَشْقَى وَنَكِدُّ.

فَاسْتَسْلَمَ الْأَوْسَطُ لِمَنْطِقِهِمَا، وَسَأَلَ أَخَوَيْهِ:

- وَكَيْفَ سَنَتَصَرَّفُ مَعَهُمْ وَهُمْ سَيَحْضُرُونَ وَقْتَ الْحَصَادِ، وَرُبَّمَا يُشَارِكُونَنَا جَمْعَ الْمَحْصُولِ كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ؟

فَقَالَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ:

- سَنَسْتَيْقِظُ مُبَكِّرِينَ قَبْلَ بُزُوغِ الْفَجْرِ، وَنَذْهَبُ إِلَى بُسْتَانِنَا مُسْرِعِينَ قَبْلَ فِعْلِ أَيِّ أَمْرٍ، وَنَجْتَهِدُ فِي جَمْعِ مَحْصُولِنَا بِأَنْفُسِنَا قَبْلَ حُضُورِ أَيِّ شَخْصٍ، وَنَعُودُ بِهِ إِلَى بَيْتِنَا دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِنَا أَحَدٌ!

وَأَكْمَلَ الْأَخُ الْأَصْغَرُ:

- وَإِذَا جَاءَ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ بَعْدَ سُطُوعِ الشَّمْسِ وَانْتِشَارِ الضَّوْءِ، وَلَمْ يَجِدُوا ثَمَرًا عَلَى الشَّجَرِ، عَادُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا، وَإِذَا سَأَلُونَا، قُلْنَا لَهُمْ:
- حَلَالٌ لَكُمْ كُلُّ مَا تَجِدُونَهُ عَلَى الشَّجَرِ!!

وَقَهْقَهُوا جَمِيعًا إِعْجَابًا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ، وَنَامُوا لَيْلَتَهُمْ وَقَدْ بَيَّتُوا فِي أَنْفُسِهِمْ هَذِهِ النِّيَّةَ، عَازِمِينَ عَلَى تَنْفِيذِهَا قَبْلَ شُرُوقِ شَمْسِ الْغَدِ.

الْجَنَّةُ الْمُحْتَرِقَةُ

بَـاتَ الْإِخْـوَةُ الثَّلَاثَـةُ يَحْلُمُونَ بِمَا سَـيَتَوَافَرُ لَهُمْ مِـنْ ثِمَارٍ، وَمَا سَـيَعُودُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَالٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَنْ يُعْطُوا الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَـاكِينَ شَـيْئًا، وَبَاتَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَحْسِـبُ كَمْ سَـيَكُونُ نَصِيبُـهُ مِـنْ مَحْصُولِ الْغَدِ الَّـذِي لَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ فَقِيرٌ أَوْ مِسْـكِينٌ شَـيْئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ! وَيَتَحَسَّـرُ عَلَى مَا مَضَى مِنْ أَعْوَامٍ كَانَ نَصِيبُهُ فِيهَا أَقَلَّ؛ لِأَنَّ الْفُقَرَاءَ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِسَبَبِ طِيبَةِ قَلْبِ أَبِيهِمْ!!

اسْـتَيْقَظَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ عِنْدَ وَقْتِ السَّـحَرِ، وَأَيْقَظَ أَخَوَيْهِ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ مُسْتَتِرٍ، فَهَبَّا وَاقِفَيْنِ عَلَى الْفَوْرِ، وَانْطَلَقَ ثَلَاثَتُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِمْ يَمْشُـونَ فِي حَذَرٍ، وَيَهْمِسُونَ فِي كَلَامِهِمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَهُمْ بَشَرٌ، وَكُلُّهُمْ عَزْمٌ وَتَصْمِيمٌ أَلَّا يُعْطُوا الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ شَيْئًا مِنْ ثِمَارِ حَدِيقَتِهِمْ!

بَاتُوا يُخَطِّطُونَ لِمَنْعِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَحِرْمَانِ الْيَتَامَى وَالسَّائِلِينَ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمَا أَرْسَلَهُ اللهُ عَلَى جَنَّتِهِمْ، وَعَاقَبَهُمْ بِهِ عَلَى خُبْثِ نِيَّتِهِمْ، وَهُمْ فِي أَحْلَامِهِمْ غَارِقُونَ، وَبِمَكْرِهِمْ وَتَدْبِيرِهِمْ مُعْجَبُونَ فَرِحُونَ!

فَمَا إِنْ وَصَلُوا إِلَى بُسْتَانِهِمْ وَحَدِيقَتِهِمْ حَتَّى أَصَابَهُمُ الْفَزَعُ، وَصَاحُوا جَمِيعًا فِي رُعْبٍ وَجَزَعٍ:

ـ لَقَدْ أَخْطَأْنَا الطَّرِيقَ، وَتُهْنَا عَنِ السَّبِيلِ.

وَمَا قَالُوا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَشْجَارًا مُحْتَرِقَةً، وَثِمَارًا مُتَفَحِّمَةً، وَأَغْصَانًا سَوْدَاءَ مُظْلِمَةً، وَأَعْشَابًا فِي الْأَرْضِ مُتَكَسِّرَةً مُتَهَشِّمَةً؛ فَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَى جَنَّتِهِمْ آفَةً سَمَاوِيَّةً، وَصَاعِقَةً رَعْدِيَّةً، أَحْرَقَتْهَا وَدَمَّرَتْهَا، فَجَعَلَتْهَا كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ الْمُدْلَهِمِّ!!

فَأَسْرَعُوا يَبْتَعِدُونَ عَنْهَا وَيَفِرُّونَ مِنْهَا؛ فَحَدِيقَتُهُمْ غَنَّاءُ وَجَنَّتُهُمْ فَيْحَاءُ، أَشْجَارُهَا عَالِيَةٌ وَثِمَارُهَا دَانِيَةٌ، وَأَعْشَابُهَا طَرِيَّةٌ وَأَغْصَانُهَا قَوِيَّةٌ، وَأَمَّا مَا يَرَوْنَهُ أَمَامَهُمْ وَتُبْصِرُهُ عُيُونُهُمْ، فَدَمَارٌ شَامِلٌ وَخَرَابٌ كَامِلٌ، لَيْسَ مِنْ جَنَّتِهِمْ فِي شَيْءٍ.

لَكِنَّهُمْ سُرْعَانَ مَا عَرَفُوا الْحَقِيقَةَ، وَتَأَكَّدُوا أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحَدِيقَةُ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَضِلُّوا الطَّرِيقَ، فَصَاحُوا فِي أَلَمٍ، وَصَرَخُوا فِي حَسْرَةٍ وَنَدَمٍ:

- بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ.

وَهُنَا قَالَ أَوْسَطُهُمْ:

- أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ؟

ذَكَّرَهُمْ بِحِوَارِ الْأَمْسِ، وَخَوْفِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ، وَكَيْفَ خَدَعَتْهُمْ أَنْفُسُهُمُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَزَيَّنَتْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الصَّوَابِ وَالْحَقِّ، وَأَنَّ الْفُقَرَاءَ لَمْ يَتْعَبُوا مِثْلَهُمْ فَلَيْسَ لَهُمْ أَيُّ حَقٍّ، وَكَيْفَ أَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ وَزَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ هُوَ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ، وَأَنَّ مَنْعَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ لَيْسَ ظُلْمًا لَهُمْ وَلَا هَضْمًا لِحَقِّهِمْ.

فَقَالُوا جَمِيعًا بَعْدَمَا وَعُوا الدَّرْسَ:

- سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.

اعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ بَعْدَمَا رَأَوْا عُقُوبَةَ فِعْلِهِمْ، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَأَخَذَ يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى نِيَّتِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ قَبْلَ ظُلْمِهِمْ لِغَيْرِهِمْ، وَتَضْيِيعِهِمْ حَقَّ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَأَصَابَهُمُ اللهُ بِضَيَاعِ كُلِّ مَالِهِمْ: رَأْسِ الْمَالِ وَالرِّبْحِ وَالصَّدَقَةِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٌ، وَصَارُوا فُقَرَاءَ كَالْفُقَرَاءِ، وَأَصْبَحُوا مَسَاكِينَ كَالْمَسَاكِينِ. وَهَذَا هُوَ عِقَابُ كُلِّ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ، وَبَخِلَ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَآتَاهُ، وَمَنَعَ حَقَّ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْيَتَامَى وَالسَّائِلِينَ.

أَصْحَابُ الْكَهْفِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا
﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ
لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ
عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ
نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى
﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ... ﴾ (الْكَهْف: 9 ـ 25)

فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

فِي مَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ الشَّامِ، وَبَعْدَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ عَامٍ، كَانَ يُوجَدُ مَلِكٌ ظَالِمٌ جَبَّارٌ، يَحْكُمُ شَعْبَهُ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَرْضِ الْأَصْلِيِّينَ، بَلْ كَانَ مِنَ الرُّومَانِ الْمُحْتَلِّينَ، الَّذِينَ حَكَمُوا بِلَادَ الشَّامِ وَمَا حَوْلَهَا مِئَاتِ السِّنِينَ. وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَلِكُ وَثَنِيًّا كَبَقِيَّةِ الرُّومَانِ، فَقَدْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ. وَلِأَنَّ النَّاسَ ـ كَمَا يُقَالُ ـ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ، فَقَدْ كَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الْقُرَى وَثَنِيِّينَ كَمَلِكِهِمْ.

وَلَكِنَّ رِسَالَةَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَت قَدْ أَخَذَتْ فِي الِانْتِشَارِ، عَلَى أَيْدِي أَتْبَاعِهِ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ الْأَبْرَارِ. وَأَخَذَ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ يَكْثُرُ وَيَزِيدُ، وَبَدَأَ النَّاسُ فِي الْمُدُنِ وَالْقُرَى يَعْرِفُونَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ، وَأَخَذُوا يُدْرِكُونَ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ خَطَأٌ فَادِحٌ، وَظُلْمٌ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ وَاضِحٌ؛ إِذْ كَيْفَ لِعَقْلٍ نَاضِجٍ وَلِإِنْسَانٍ عَاقِلٍ أَنْ يَعْبُدَ أَصْنَامًا صَنَعَهَا بِيَدَيْهِ، أَوْ يَسْجُدَ لِأَوْثَانٍ نَحَتَهَا غَيْرُهُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ؟!

وَقَدْ تَسَلَّلَ أَحَدُ دُعَاةِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، إِلَى مَدِينَةِ هَذَا الْمَلِكِ الظَّالِمِ الْعَنِيدِ، وَأَخَذَ يَدْعُو النَّاسَ فِيهَا إِلَى التَّوْحِيدِ، فَآمَنَ بِهِ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، عَلَى خَوْفٍ مِنَ الْمَلِكِ وَاسْتِحْيَاءٍ.

وَلَكِنَّ عُيُونَ الْمَلِكِ وَجَوَاسِيسَـهُ عَرَفُوا أَمْرَهُمْ، وَنَقَلُوا إِلَى الْمَلِكِ خَبَرَهُمْ، فَأَمَرَ جُنُودَهُ عَلَى الْفَوْرِ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِمْ وَسَـجْنِهِمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ جَمِيعًا وَصَلْبِهِمْ؛ حَتَّى يَكُونُـوا عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ، فَلَا وَقْتَ لَدَيْهِ لِلتَّحْقِيقِ؛ فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الِاحْتِفَالِ السَّـنَوِيِّ الْكَبِيـرِ بِالْآلِهَـةِ الْعَظِيمَـةِ، وَلَا بُـدَّ أَنْ يَفْـرُغَ الْجَمِيعُ لِمَرَاسِـمِ هَذَا الِاحْتِفَـالِ، وَأَنْ تَسْتَقْبِلَهُ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ!

وَبِالْفِعْلِ عُلِّقَتِ الزِّينَاتُ فِي الشَّـوَارِعِ وَالطُّرُقَـاتِ، وَعَمَّتْ أَجْوَاءُ الِاحْتِفَالِ كُلَّ الْأَمَاكِنِ وَالسَّـاحَاتِ. وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ، وَخَرَجَ الْمَلِكُ فِي مَوْكِبٍ مَشْهُودٍ، إِلَى سَاحَةِ الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ، حَيْثُ تَمَّ حَشْدُ الْجَمَاهِيرِ.

وَبَدَأَتْ مَرَاسِـمُ الِاحْتِفَالِ بِسُـجُودِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، أَمَامَ آلِهَةِ الصُّخُورِ وَالْأَحْجَارِ، يَطْلُبُ مِنْهَا فِي ذِلَّةٍ وَخُضُوعٍ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ مُلْكَهُ، وَأَنْ تَمْنَحَهُ وَشَعْبَهُ الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ!!

ثُمَّ سَجَدَ الْوُزَرَاءُ وَالْأُمَرَاءُ، وَالسَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ، كُلٌّ يَدْعُو بِمَا يَشَاءُ، وَتَبِعَهُمُ الْقَادَةُ وَالْجُنُـودُ، ثُمَّ أَخَـذَ الْحَاضِرُونَ كُلُّهُمْ فِي السُّـجُودِ، إِلَّا فَتًى فِي السَّادِسَـةَ عَشْـرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، قَـدْ ضَاقَ مِنْ هَـذَا الْمَنْظَرِ صَـدْرُهُ، وَنَفِدَ لِرُؤْيَتِهِ صَبْرُهُ، فَخَرَجَ حَزِينًا مِنَ الْمَعْبَدِ، فِرَارًا مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ.

وَذَهَبَ لِيَسْتَظِلَّ بِظِلِّ شَجَرَةٍ، فَوَجَدَ تَحْتَهَا خَمْسَةً مِـنَ الْفِتْيَةِ، كُلُّهُمْ تَقْرِيبًا فِي مِثْلِ سِـنِّهِ، وَزِيُّهُمْ كَزِيِّهِ، مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَرَاءِ وَالسَّـادَةِ، وَالْكُبَـرَاءِ وَالْقَادَةِ، لَكِنَّ كُلَّ وَاحِـدٍ مِنْهُمْ يَجْلِسُ وَحْـدَهُ، وَلَا يَبُثُّ الْآخَرِينَ مَـا عِنْدَهُ، مَعَ أَنَّ الْحُـزْنَ كَادَ يَقْتُلُهُمْ جَمِيعًا! فَعَرَفَ أَنَّهُـمْ قَدْ تَرَكُوا الْمَعْبَدَ مِثْلَهُ سَـرِيعًا، لِلسَّـبَبِ نَفْسِـهِ الَّذِي قَدْ تَرَكَ هُوَ الْمَعْبَدَ مِنْ أَجْلِهِ. فَسَأَلَ أَحَدَهُمْ:

ـ لِمَاذَا تَرَكْتَ الِاحْتِفَالَ، وَلَمْ تَسْـجُدْ مَعَ الْآخَرِينَ لِلتِّمْثَالِ؟

فَلَمْ يَـرُدَّ عَلَيْهِ، وَاكْتَفَى بِتَدْقِيقِ النَّظَرِ إِلَيْهِ! فَسَـأَلَ

وَاحِـدًا آخَرَ وَآخَرَ حَتَّى سَـأَلَهُمْ كُلَّهُمْ، وَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدُهُـمْ، بَلْ أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْآخَرِ فِي شَكٍّ وَرِيبَةٍ، كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي مُصِيبَةٍ! عِنْدَئِذٍ قَالَ لَهُمْ، وَكَانَ عَلَى مَا يَبْدُو كَبِيرَهُمْ:

- إِنَّ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَنِي؛ إِنَّ قَوْمَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ؛ إِذْ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْأَصْنَـامَ وَالتَّمَاثِيـلَ أَنْـدَادًا لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِهِ ـ سُـبْحَانَهُ ـ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَبِيَدِهِ وَحْدَهُ نَفْعُهُمْ وَضَرُّهُمْ.

وَهُنَا قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ، وَقَدْ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ:

- وَاللهِ الَّـذِي لَا إِلَـهَ غَيْـرُهُ، وَلَا رَبَّ سِـوَاهُ، إِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي أَخْرَجَنِـي مِنْ بَيْنِهِمْ، وَأَبْعَدَنِي عَنْ حَفْلِهِمْ.

وَقَالَ الثَّانِي، وَقَدِ انْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُ:

- وَالَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، إِنَّ هَذَا هُوَ مَا مَلَأَ صَدْرِي، وَجَعَلَنِي لَا أُطِيقُ رُؤْيَةَ مَا يَجْرِي، فَتَرَكْتُ أَبِي وَأُمِّي، وَخَالِي وَعَمِّي، وَخَرَجْتُ لِأَخْلُوَ بِرَبِّي، وَأَبُثَّهُ مَا فِي صَدْرِي وَقَلْبِي.

وَقَالَ الثَّالِثُ، وَقَدْ مَلَأَتِ السَّعَادَةُ وَجْهَهُ:

- وَالَّـذِي خَلَقَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ، وَأَجْرَى الْمِيَاهَ فِي الْأَنْهَـارِ، وَفَجَّرَ الْعُيُونَ وَالْآبَارَ، إِنَّ الَّذِي حَدَثَ لَكُمْ هُوَ مَا حَدَثَ لِي.

وَقَالَ الرَّابِـعُ وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا يَسْمَعُ:

- وَالَّذِي خَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَأَنْزَلَ مِنْ عِنْدِهِ مَاءَ الْمَطَرِ، وَلَمْ يَنْسَ فِي رِزْقِهِ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ.. إِنَّ قَلْبِي لَيَكَادُ يَطِيرُ فَرَحًا بِهَذَا الْخَبَرِ.

وَقَالَ الْخَامِسُ وَهُوَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ:

- الْحَمْـدُ لِلهِ الَّذِي أَرْشَـدَنَا إِلَيْهِ، وَدَلَّنَا ـ بِفَضْلِـهِ ـ عَلَيْهِ، وَجَمَعَنَا عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَوَفَّقَنَا إِلَى عِبَادَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.

فَقَامُـوا جَمِيعًـا يَتَعَانَقُـونَ، وَعَـلَى أَيْدِي بَعْضِهِـمْ يَشُـدُّونَ.. تَمْلَأُ السَّـعَادَةُ وُجُوهَهُـمْ، وَتَتَرَقْرَقُ الدُّمُوعُ فِي عُيُونِهِمْ.. تَتَحَرَّكُ أَلْسِـنَتُهُمْ بِشُـكْرِ رَبِّهِمْ، وَيَتَعَاهَدُونَ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَـالَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ إِزْهَاقُ أَرْوَاحِهِمْ! فَقَالَ لَهُمْ كَبِيرُهُمْ مُحَذِّرًا:

ـ مَـا هَكَذَا يَكُونُ شُـكْرُ نِعْمَةِ الْهِدَايَـةِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْغِوَايَـةِ! فَإِيَّاكُـمْ ثُمَّ إِيَّاكُـمْ أَنْ يَذِيـعَ خَبَرُكُـمْ، أَوْ يُكْشَـفَ أَمْرُكُمْ، فَلَمْ يَبْـقَ فِي الْمَدِينَـةِ كُلِّهَا مُوَحِّدٌ غَيْرُكُـمْ، وَإِنْ قَتَلَكُـمُ الْمَلِكُ مَاتَتِ الرِّسَـالَةُ، وَبَقِيَ النَّاسُ فِي الْكُفْـرِ وَالضَّلَالَةِ، فَاحْفَظُوا أَنْفُسَـكُمْ، وَكُونُوا فِي أَمْرِ دَعْوَتِكُمْ عَلَى حَذَرٍ، وَلْنَلْتَقِ دَائِمًا فِي مَكَانٍ لَا يَرَانَا فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ.

فَاسْتَحْسَـنُوا جَمِيعًا هَذَا الرَّأْيَ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَجْتَمِعُوا فِي أَرْضِ الْمَرَاعِي بَيْنَ الْأَغْنَامِ وَالشِّيَاهِ، بَعِيدًا عَنْ عُيُونِ الْجَوَاسِيسِ وَالْوُشَاةِ.

أَطْوَلُ نَوْمَةٍ فِي التَّارِيخِ

لَـمْ تَدُمْ دَعْـوَةُ الْفِتْيَةِ طَوِيلًا، عَلَى الرَّغْمِ مِنِ اجْتِهَادِهِمْ فِي إِخْفَاءِ أَمْرِهِمْ، فَسُـرْعَانَ مَا كَشَـفَ جَوَاسِـيسُ الْمَلِكِ سِـرَّهُمْ، وَنَقَلُوا إِلَى الْمَلِكِ خَبَرَهُمْ، فَأَمَرَ بِمُثُولِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ السَّادَةِ وَالْأُمَرَاءِ، وَالْقَادَةِ وَالْكُبَرَاءِ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ مُعَامَلَتُهُمُ الْخَاصَّةُ حَتَّى لَوْ كَانَتِ التُّهْمَةُ الْمُوَجَّهَةُ إِلَيْهِمْ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الْخُطُورَةِ.

فَلَمَّا حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، سَأَلَهُمْ وَالشَّرَرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ:

- مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ، وَكَيْفَ صَدَرَ هَذَا مِنْكُمْ؟! أَتَرَكْتُمْ دِينَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَاتَّبَعْتُـمْ دِيـنَ الْعَبِيـدِ وَالْأَوْغَـادِ؟! كَيْفَ طَابَـتْ لِذَلِـكَ نُفُوسُـكُمْ، وَارْتَاحَتْ لَهُ عُقُولُكُمْ؟! أَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ، وَنَسْلَ أَبَاطِرَةِ الرُّومَانِ الْعِظَامِ؟!

فَسَكَتُوا جَمِيعًا وَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِكَلِمَةٍ. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ بِلُطْفٍ:

- سَـوْفَ أَشْـفَعُ لَكُمْ عِنْدَ إِلَهِ الرُّومَـانِ الْعَظِيمِ؛ حَتَّى يَغْفِرَ لَكُمْ هَـذِهِ الزَّلَّةَ، وَالْإِلَهُ الْعَظِيمُ لَنْ يَرُدَّ لِي أَيَّ شَفَاعَةٍ، مَا دُمْتُمْ سَتَخْضَعُونَ لَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ.

وَهُنَا تَحَدَّثَ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا، وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ إِلَى الْمَلِكِ نَسَبًا، فَقَالَ:

- أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّنَا لَنْ نَخْضَعَ إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِهِ أَحَدًا مِنْ آلِهَةِ الشَّـرْقِ أَوِ الْغَرْبِ. وَإِنَّنَا نَدْعُوكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ الْمَصْنُوعَةِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

فَلَمَّا سَـمِعَ الْمَلِـكُ هَذَا الْكَلَامَ، ثَارَ ثَوْرَةً شَـدِيدَةً، وَأَخَذَ يُهَدِّدُهُـمْ وَيَتَوَعَّدُهُمْ، وَيُقْسِـمُ لَهُمْ بِأَغْلَظِ الْأَيْمَانِ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الرُّومَانِ لَقَتَلَهُمْ فِي الْحَالِ، وَلَأَلْقَـى بِجُثَثِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْجِبَالِ، تَأْكُلُهَا السِّـبَاعُ الْجَائِعَـةُ وَالطُّيُورُ الْجَارِحَةُ؛

حَتَّى يَكُونُوا عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَكْفُرُ بِالْآلِهَةِ الْعَظِيمَةِ. ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُرَاجِعُوا أَمْرَ دِينِهِمْ مَعَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ فِي الْغَدِ وَقَدِ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ: إِمَّا الْعِزَّةَ وَالْكَرَامَةَ، وَإِمَّا الذِّلَّةَ وَالْمَهَانَةَ، إِمَّا الرُّجُوعَ إِلَى دِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَإِمَّا الْبَقَاءَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْقُيُودِ وَالْأَصْفَادِ، بِلَا طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ وَلَا زَادٍ، حَتَّى يَمُوتُوا مِنَ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ، أَوْ يُطْعِمُهُمْ رَبُّهُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَالْخُضُوعَ.

فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ عَازِمِينَ عَلَى الْفِرَارِ بِدِينِهِمْ، وَالنَّجَاةِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ، فَتَوَجَّهُوا مُتَسَلِّلِينَ إِلَى كُوخِ الرَّاعِي الَّذِي آمَنَ مَعَهُمْ بِرَبِّهِمْ، بَعْدَ أَنِ اطَّلَعَ عَلَى سِرِّهِمْ؛ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ عِنْدَهُ مَكَانًا آمِنًا يَسْتَطِيعُونَ فِيهِ التَّفْكِيرَ بِهُدُوءٍ فِي طَرِيقَةٍ لِلْهَرَبِ مِنْ جُنُودِ هَذَا الْمَلِكِ الظَّالِمِ.

فَقَضَـوْا عِنْـدَ الرَّاعِي لَيْلَتَهُمْ، وَقَصُّـوا عَلَيْهِ حِكَايَتَهُمْ. وَأَخَـذُوا جَمِيعًا يُفَكِّرُونَ فِي طَرِيقَـةٍ لِلنَّجَاةِ، وَيَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِنْ ظُلْـمِ هَؤُلَاءِ الطُّغَاةِ، فَأَلْهَمَهُمُ اللهُ أَنْ يَـأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ الَّذِي فِي أَعْلَى الْجَبَلِ الْمُطِلِّ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَسَـيَكُونُ أَكْثَرَ أَمْنًا مِنْ كُوخِ الرَّاعِي، وَفِيهِ سَيَرْفُقُ اللهُ بِهِمْ، وَسَيَنْشُرُ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ.

فَخَرَجُوا جَمِيعًا إِلَى الْكَهْفِ، يَسْـتَتِرُونَ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ، يُرِيدُونَ بُلُوغَ الْكَهْفِ قَبْلَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. خَرَجُوا فِي وَقْتِ السَّحَرِ.. سِتَّةٌ مِنْ أَبْنَاءِ الرُّومَانِ، وَالرَّاعِي الْأَمِينُ، وَتَبِعَهُمْ كَلْبُ الرَّاعِي.. فَصَارُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ.

وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مُرَادَهُمْ، فَبَلَغُوا الْكَهْفَ مَعَ أَوَّلِ خَيْطٍ مِنْ خُيُوطِ الصُّبْحِ، فَدَخَلُوا جَمِيعًـا إِلَى جَوْفِهِ، وَرَبَضَ الْكَلْبُ عِنْدَ الْبَابِ كَأَنَّهُ حَارِسٌ أَوْ بَوَّابٌ. وَمَا إِنْ هَدَأَتْ

مِنَ الْخَوْفِ نُفُوسُهُمْ، وَارْتَاحَتْ مِنَ السَّيْرِ أَبْدَانُهُمْ، حَتَّى رَفَعُوا أَيَادِيَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، طَالِبِينَ مِنْ خَالِقِهَا الرَّحْمَةَ وَالْإِيوَاءَ، مُرَدِّدِينَ جَمِيعًا:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الْكَهْف: 10)

فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُمْ، وَجَعَلَ الْكَهْفَ مَأْوًى لَهُمْ، وَضَرَبَ النَّوْمَ عَلَى آذَانِهِمْ. فَنَامُوا نَوْمَةً عَجِيبَةً، وَعَلَى هَيْئَةٍ غَرِيبَةٍ، وَاسْتَمَرُّوا فِي نَوْمِهِمْ ثَلَاثَمِئَةِ سَنَةٍ وَتِسْعَ سِنِينَ!! نَامَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ أَطْوَلَ نَوْمَةٍ شَهِدَهَا التَّارِيخُ! نَامُوا ثَلَاثَمِئَةِ سَنَةٍ وَتِسْعَ سِنِينَ، يُقَلِّبُهُمُ اللهُ عَلَى جُنُوبِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَذَاتَ الْيَمِينِ.. نَامُوا وَعُيُونُهُمْ مَفْتُوحَةٌ كَأَنَّهُمْ أَيْقَاظٌ! فَصَارَ مَنْظَرُهُمْ مُرْعِبًا لِكُلِّ مَنْ يَرَاهُمْ، مُخِيفًا لِكُلِّ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الِاقْتِرَابَ مِنْهُمْ أَوْ حَتَّى الدُّخُولَ إِلَيْهِمْ.

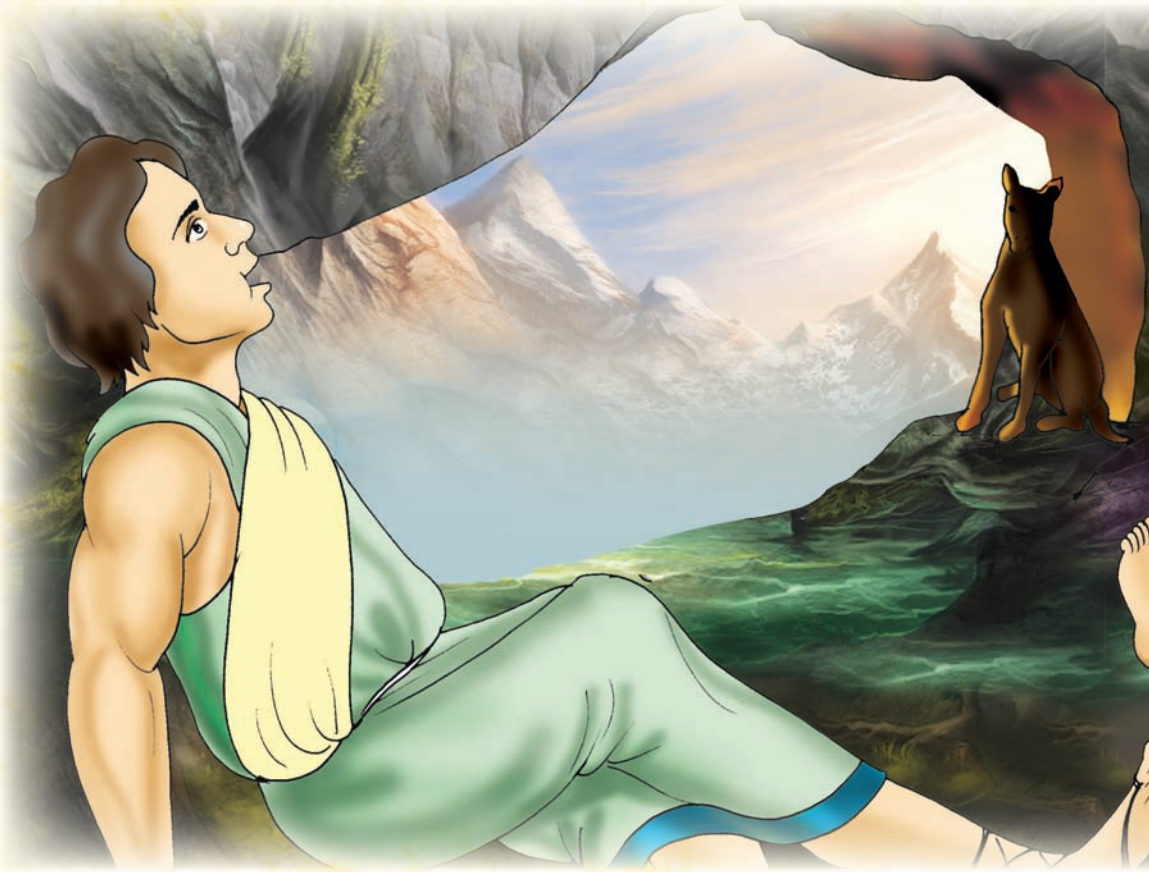

إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ

اسْـتَيْقَظَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا عَلَى خَبَـرِ اخْتِفَاءِ الْفِتْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ، وَقَدْ أَرْسَـلَ الْمَلِكُ الظَّالِـمُ جُنُودَهُ يَبْحَثُونَ عَنْهُـمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَمَرَهُمْ بِتَفْتِيشِ كُلِّ بَيْـتٍ وَكُوخٍ وَدُكَّانٍ، وَتَوَعَّدَ كُلَّ مَنْ يُخْفِيهِمْ بِالسَّجْنِ وَالْإِذْلَالِ، وَوَعَدَ مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِمْ بِمُكَافَأَةٍ تَفُوقُ الْخَيَالَ.

وَصَـارَ خَبَرُ إِيمَانِ الْفِتْيَةِ بِاللهِ، وَفِرَارُهُمْ بِدِينِهِمْ مِنْ بَطْشِ الطُّغَاةِ، صَارَ هَذَا الْخَبَرُ حَدِيثَ الْمَدِينَةِ كُلِّهَا، وَحَرَّكَ عُقُولَ النَّاسِ لِمَعْرِفَةِ رَبِّهَا، وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ هَدَفَ الْفِتْيَةِ وَغَايَتَهُمْ.. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ تَبْلِيغَ دِينِهِ إِلَى عِبَادِهِ عَلَى أَيْدِي أَعْدَاءِ الدِّينِ وَمُبْغِضِيهِ!

وَتَوَصَّلَ جُنُودُ الْمَلِكِ وَجَوَاسِيسُـهُ إِلَى اخْتِفَاءِ الْفِتْيَةِ فِي الْكَهْفِ، فَأَبْلَغُوا الْمَلِكَ عَلَى الْفَوْرِ، فَذَهَبَ إِلَى الْكَهْفِ بِنَفْسِـهِ، يُرِيدُ أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْهِمْ بِشَخْصِهِ، فَمَا إِنْ نَظَرَ إِلَيْهِـمْ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ، حَتَّـى مُلِئَ مِنْ مَنْظَرِهِمْ رُعْبًا، وَفَرَّ مِـنْ أَمَامِهِمْ خَوْفًا وَفَزَعًا. وَأَمَـرَ جُنُودَهُ أَنْ يَسُـدُّوا عَلَيْهِمْ كَهْفَهُمْ بِالْأَحْجَارِ وَالصُّخُـورِ، فَيَصِيرَ هَذَا الْكَهْفُ مَقْبَـرَةً لَهُـمْ إِلَى آخِرِ الدُّهُورِ. ثُمَّ عَيَّـنَ عَلَيْهِمُ الْجُنُودَ وَالْحُـرَّاسَ؛ حَتَّى لَا يَزُورَهُمْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ.

كُلُّ هَـذَا وَأَصْحَـابُ الْكَهْـفِ فِي مَأْوَاهُمْ نَائِمُـونَ، لَا يُؤْذِيهِمْ بَـرْدٌ وَلَا حَرٌّ، وَلَا رِيحٌ وَلَا مَطَرٌ، حَتَّى الشَّـمْسُ لَا تَدْخُلُ إِلَيْهِمْ إِلَّا قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَقَدْ هَدَأَتْ أَشِعَّتُهَا وَآذَنَتْ بِالْمَغِيبِ.. تَدْخُلُ إِلَيْهِمْ مُتَسَلِّلَةً عَبْرَ فَجْوَةٍ فِي الْكَهْفِ، فَلَا تُؤْذِيهِمْ بِشُعَاعِهَا، وَلَا تُزْعِجُهُمْ بِحَرِّهَا. وَهَكَذَا جَعَلَ اللهُ الْكَهْفَ مَأْوًى لَهُمْ وَرَحْمَةً، وَبَرْدًا وَسَـلَامًا وَنِعْمَةً. فَسُـبْحَانَ مَنْ يَلْطُفُ بِأَوْلِيَائِهِ، وَيُسَـخِّرُ لَهُمْ مِنْ آلَائِهِ وَنَعْمَائِهِ، مَا يَنْشُرُ دِينَهُ وَيُحَقِّقُ وَعْدَهُ.

وَيَمُوتُ الْمَلِكُ الطَّاغِيَةُ وَجُنُودُهُ، وَتَبِيدُ دَوْلَتُهُ وَتَضِيعُ حُدُودُهُ، وَتَمُرُّ السِّنُونَ وَالْأَعْوَامُ، وَيَهْلِكُ مَعَهَا حُكَّامٌ وَحُكَّامٌ، وَتَسْقُطُ دُوَلٌ وَتَقُومُ دُوَلٌ. وَبَعْدَ مِئَاتِ السِّنِينَ.. يُؤْمِنُ أَحَدُ الْمُلُوكِ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَنْشُرُ دِينَ اللهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَجْتَهِدُ فِي نَشْرِهِ بِحُبٍّ وَإِخْلَاصٍ، فَيُؤْمِنُ السَّادَةُ وَالْعَبِيدُ، وَتَنْتَشِرُ عَقِيدَةُ التَّوْحِيدِ، وَيَأْذَنُ اللهُ لِأَصْحَابِ الْكَهْفِ أَنْ يَسْتَيْقِظُوا مِنْ نَوْمِهِمْ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

بَعْدَ ثَلَاثِمِئَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ يَسْتَيْقِظُ أَصْحَابُ الْكَهْفِ مِنْ نَوْمِهِمْ، يَنْفُضُونَ الْغُبَارَ عَنْ رُءُوسِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، لَمْ تَتَغَيَّرْ هَيْئَاتُهُمْ.. يَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَنْ مُدَّةِ نَوْمِهِمْ، فَيُجِيبُ بَعْضُهُمْ:

ـ لَقَدْ نِمْنَا يَوْمًا كَامِلًا.. لَا.. لَا.. بَلْ بِضْعَ سَاعَاتٍ؛ فَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ بَعْدُ.

فَيَرُدُّ بَعْضُهُمْ:

- اللهُ أَعْلَـمُ بِمُدَّةِ نَوْمِنَـا، الْمُهِمُّ أَنْ نُسَـكِّنَ جُوعَنَا.. فَلْيَذْهَبْ أَحَدُنَـا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلْيَشْـتَرِ لَنَا طَعَامًا، وَلْيَكُـنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ جُنُودِ الْمَلِكِ وَجَوَاسِيسِـهِ، فَلَوْ عَرَفُوا مَكَانَنَا لَقَتَلُونَا أَوْ أَجْبَرُونَا عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى دِينِهِمْ، وَلَنْ نُفْلِحَ إِذَنْ أَبَدًا.

فَجَمَعُـوا مَـا مَعَهُمْ مِنْ دَرَاهِـمَ فَوَجَدُوهَا قَلِيلَةً، لَكِنَّهَا تَفِي بِالْغَـرَضِ لِهَذَا الْيَوْمِ فَقَطْ، فَأَخَذَهَا كَبِيرُهُمْ وَخَرَجَ مِنَ الْكَهْفِ، وَكَانَ بَابُهُ قَدْ فُتِحَ مِنْ عَشَرَاتِ السِّنِينَ، وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ يَوْمَ أَنْ دَخَلُوهُ.

وَمَا إِنْ نَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ حَتَّى شَـعَرَ بِفَرْقِ الزَّمَنِ، فَرَأَى مَعَالِمَ الطَّرِيقِ قَدْ تَغَيَّرَتْ، وَشَـاهَدَ الْمَدِينَةَ قَدْ تَطَـوَّرَتْ، فَأَحَسَّ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ، فَسَـأَلَ أَحَدَ الْمَارَّةِ عَنِ السُّـوقِ. وَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ، صَارَ لَا يَكَادُ يُصَدِّقُ مَا يَرَاهُ بِعَيْنَيْهِ، وَكَادَ يَفْقِدُ عَقْلَهُ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَغَيَّرَ الْمَدِينَةُ هَكَذَا فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ!

إِلَّا أَنَّهُ آثَرَ أَنْ يَشْـتَرِيَ مِنَ الطَّعَامِ مَا طَابَ وَخَفَّ، وَيَعُودَ بِسُـرْعَةٍ إِلَى أَصْحَابِهِ فِي الْكَهْـفِ، فَمَدَّ يَدَهُ بِالدَّرَاهِمِ إِلَى الْبَائِعِ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الطَّعَامِ نَظْرَةَ الْخَائِفِ الْجَائِعِ. لَكِـنَّ الْبَائِـعَ مَا إِنْ رَأَى دَرَاهِـمَ الْفَتَى الَّتِي يَعُودُ تَارِيخُهَا إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِمِئَةِ سَـنَةٍ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّ الْفَتَى قَدْ عَثَرَ عَلَى كَنْزٍ، فَأَخَذَ يُسَاوِمُهُ عَلَى نِصْفِ الْكَنْزِ وَثُلُثِهِ وَرُبُعِهِ عَلَى أَلَّا يُخْبِـرَ أَحَدًا، وَالْفَتَى لَا يَفْهَمُ مَا يَحْدُثُ، وَيُصِرُّ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ بِالطَّعَامِ بِسُـرْعَةٍ، فَتَعَلَّـقَ بِهِ الْبَائِعُ، وَصَرَخَ يُنَادِي الشُّـرْطَةَ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَـذَا الْفَتَى قَدْ عَثَرَ عَلَى كَنْزٍ أَثَرِيٍّ، وَيُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهِ لِنَفْسِهِ.

فَأَخَذَهُ الْجُنُودُ إِلَى قَائِدِهِمْ، وَالْفَتَى قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يَفْقِدَ عَقْلَهُ؛ فَكَمَا تَغَيَّرَتِ الْبُيُوتُ وَالشَّوَارِعُ، وَالْأَسْوَاقُ وَالْمَصَانِعُ، تَغَيَّرَ أَيْضًا الْجُنُودُ وَالْقُوَّادُ، وَتَغَيَّرَتْ أَخْلَاقُ الْعِبَادِ؛

فَقَدْ سَمِعَهُمْ فِي السُّوقِ يَحْلِفُونَ بِاللهِ الَّذِي لَا يَحْنُونَ لِغَيْرِهِ الْجِبَاهَ، وَيَذْكُرُونَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَيَدْعُونَ لِلْمَلِكِ الْعَادِلِ الْبَارِّ. فَسَأَلَ الْفَتَى قَائِدَ الْجُنُودِ:

- أَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟

فَأَجَابَهُ الْقَائِدُ فِي عَجَبٍ وَدَهْشَةٍ:

- لَا يُوجَدُ فِي الْمَدِينَةِ كُلِّهَا مَنْ يَكْفُرُ بِاللهِ، أَوْ يَعْبُدُ رَبًّا سِوَاهُ.

فَسَأَلَهُ الْفَتَى وَهُوَ يَبْكِي مِنْ شِدَّةِ الْحَيْرَةِ وَالذُّهُولِ:

- كَيْفَ حَدَثَ هَذَا فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟! لَقَدْ هَرَبْنَا بِالْأَمْسِ فَقَطْ مِنَ الْمَلِكِ الظَّالِمِ وَجُنُودِهِ الْغَاشِمِينَ، وَأَوَيْنَا إِلَى الْكَهْفِ؛ فِرَارًا بِدِينِنَا، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَى ذَلِكَ سِوَى يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ!

ثُمَّ انْخَرَطَ فِي بُكَاءٍ شَدِيدٍ، وَهُوَ يَدْعُو اللهَ اللَّطِيفَ الْوَدُودَ، أَنْ يَلْطُفَ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ، فَأَخَذَهُ قَائِدُ الشُّرْطَةِ إِلَى الْمَلِكِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي عَقَدَ لَهُ مَجْلِسًا مِنَ الْعُلَمَاءِ، سَأَلُوهُ عَنِ اسْمِهِ وَأَسْمَاءِ أَصْحَابِهِ الْأَتْقِيَاءِ، فَجَاءَتْ إِجَابَتُهُ مُوَافِقَةً لِمَا سُطِّرَ فِي الرَّقِيمِ مُنْذُ

مِئَاتِ السِّنِينَ. وَالرَّقِيمُ هُوَ اللَّوْحُ الَّذِي سَجَّلَ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ خَوْفًا مِنْ ظُلْمِ مَلِكِهِمْ.

وَهُنَا أَقْبَلَ الْمَلِكُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ، يَحْتَضِنُهُ وَيُقَبِّلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَيُخْبِرُهُ بِمَا حَدَثَ بَعْدَ اخْتِفَائِهِمْ مِنْ أَحْدَاثٍ، وَكَيْفَ أَنَّ اللهَ قَدْ خَلَّدَ ذِكْرَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ. وَأَخَذَ الْعُلَمَاءُ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الدُّعَاءَ لَهُمْ، وَيُخْبِرُونَهُ أَنَّ اللهَ مَا بَعَثَهُمُ الْآنَ إِلَّا لِتَقَرَّ عُيُونُهُمْ بِانْتِصَارِ دِينِهِمْ وَهَزِيمَةِ عَدُوِّهِمْ، وَلِيَعْلَمَ كُلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَأَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ.

ثُمَّ اسْتَأْذَنَهُ الْمَلِكُ أَنْ يَذْهَبُوا جَمِيعًا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ؛ لِيُسَلِّمُوا عَلَى أَصْحَابِهِ الْأَبْرَارِ، وَلِيَكُونُوا رُفَقَاءَهُمْ فِي رِحْلَةِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَطَلَبَ الْفَتَى مِنْهُمْ أَنْ يَسْبِقَهُمْ هُوَ إِلَى الْكَهْفِ؛ لِيُخَفِّفَ عَنْ أَصْحَابِهِ وَقْعَ الْمُفَاجَأَةِ، وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ شِدَّةَ الصَّدْمَةِ.

وَانْطَلَقَ الْفَتَى يَعْدُو إِلَى أَصْحَابِهِ فِي الْكَهْفِ، وَخَلْفَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ! يَتَقَدَّمُهُمُ الْمَلِكُ فِي مَوْكِبٍ مَهِيبٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْوُزَرَاءِ، وَالْقَادَةِ وَالْأُمَرَاءِ، وَالسَّادَةِ وَالْجُنُودِ، وَالْعَوَامِّ وَالْعَبِيدِ.. فِي جَمْعٍ مِنَ الْبَشَرِ غَرِيبٍ، وَحَشْدٍ مِنَ النَّاسِ عَجِيبٍ.. كُلُّهُمْ يُرِيدُونَ رُؤْيَةَ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، وَمُصَافَحَةَ أَصْحَابِهَا الْأَبْرَارِ.

وَمَا إِنْ دَخَلَ الْفَتَى إِلَى الْكَهْفِ، وَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِمَا حَدَثَ، حَتَّى رَفَعُوا أَكُفَّهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَطْلُبُونَ مِنْ خَالِقِهَا فِي تَضَرُّعٍ وَبُكَاءٍ، أَلَّا يُكَلِّفَهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ، وَأَنْ يَلْطُفَ بِهِمْ وَبِصُحْبَتِهِمْ، وَأَلَّا يَجْعَلَهُمْ فِتْنَةً لِأَهْلِ مَدِينَتِهِمْ. فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُمْ، وَقَبَضَ فِي الْحَالِ أَرْوَاحَهُمْ. وَوَصَلَ الْمَلِكُ إِلَيْهِمْ وَقَدْ فَارَقُوا الْحَيَاةَ، وَرَآهُمْ وَقَدْ أَغْمَضُوا الْعُيُونَ وَأَطْبَقُوا الشِّفَاهَ، فَجَعَلَ قُبُورَهُمْ دَاخِلَ كَهْفِهِمْ، وَدَعَا النَّاسَ جَمِيعًا أَنْ يَحْكُوا قِصَّتَهُمْ لِأَبْنَائِهِمْ وَأَحْفَادِهِمْ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ قُدْوَةً لَهُمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (البُرُوج: 1 ـ 11)

مَلِكٌ يَدَّعِي الْأُلُوهِيَّةَ

قَبْلَ مِيلَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَفِي مِنْطَقَةٍ مِنْ مَنَاطِقِ الْيَمَنِ تُسَمَّى «نَجْرَانَ»، كَانَتْ عَقِيدَةُ التَّوْحِيدِ قَدْ أَخَذَتْ فِي الظُّهُورِ وَالِازْدِيَادِ، عَلَى أَيْدِي أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الرُّهْبَانِ وَالْعُبَّادِ، الْأَمْرُ الَّذِي لَمْ يُعْجِبْ مَلِكَ هَذِهِ الْبِلَادِ، فَأَخَذَ فِي مُحَارَبَةِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ بِالْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ وَالْحِيلَةِ، وَلَمْ يَتْرُكْ فِي مُحَارَبَتِهِ أَيَّةَ وَسِيلَةٍ، حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى دُعَاةِ هَذَا الدِّينِ وَأَتْبَاعِهِ، وَأَنْ يَقْتُلَ كُلَّ أَنْصَارِهِ وَأَشْيَاعِهِ، إِلَّا رَاهِبًا اسْتَطَاعَ النَّجَاةَ بِنَفْسِهِ وَدِينِهِ، وَتَمَكَّنَ مِنَ الْفِرَارِ إِلَى كَهْفٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

وَلَمَّا تَمَّ لِهَذَا الْمَلِكِ الْجَبَّارِ مَا أَرَادَ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ، أُعْجِبَ بِنَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ، وَاغْتَرَّ بِمُلْكِهِ وَسَطْوَتِهِ، فَنَصَّبَ نَفْسَهُ إِلَهًا لِلنَّاسِ، وَدَعَا الشَّعْبَ جَمِيعًا إِلَى عِبَادَتِهِ!! وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ سَاحِرًا مَاهِرًا يَخْدَعُ النَّاسَ بِسِحْرِهِ، وَيَدْعُوهُمْ بِفَنِّهِ وَمَكْرِهِ إِلَى عِبَادَةِ الْمَلِكِ الْإِلَهِ!

وَاسْتَمَرَّتِ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ سِنِينَ طَوِيلَةً، حَتَّى نَسِيَ النَّاسُ أَمْرَ التَّوْحِيدِ، وَصَارُوا يُقَدِّمُونَ لِلْمَلِكِ كُلَّ مَا يُرِيدُ؛ خَوْفًا مِنْ غَضَبِهِ وَعَذَابِهِ، وَاتِّقَاءً لِبَطْشِهِ وَعِقَابِهِ! حَتَّى طَعَنَ السَّاحِرُ فِي السِّنِّ، وَذَهَبَتْ صِحَّتُهُ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُ. فَطَلَبَ مِنَ الْمَلِكِ غُلَامًا ذَكِيًّا يُعَلِّمُهُ سِحْرَهُ وَحِرْفَتَهُ، وَفَنَّهُ وَمِهْنَتَهُ؛ لِيَحْفَظَ عَلَى الْمَلِكِ ـ مِنْ بَعْدِهِ ـ أُلُوهِيَّتَهُ!

فَاسْتَجَابَ الْمَلِكُ لَهُ عَلَى الْفَوْرِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ غُلَامًا مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ، لَكِنَّهُ مُتَوَقِّدُ الذَّكَاءِ وَالْإِحْسَاسِ، فَاجْتَهَدَ السَّاحِرُ فِي تَعْلِيمِهِ وَتَلْقِينِهِ وَتَدْرِيبِهِ، وَبَرَعَ الْغُلَامُ فِي تَحْصِيلِ السِّحْرِ وَفَهْمِهِ وَاسْتِيعَابِهِ.

وَكَانَ بَيْتُ الْغُلَامِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ إِذَا ذَهَبَ إِلَى السَّاحِرِ، مَرَّ مِنْ أَمَامِ الْكَهْفِ الَّذِي يَخْتَبِئُ فِيهِ الرَّاهِبُ. وَقَدْ لَاحَظَ الرَّاهِبُ انْتِظَامَ الْغُلَامِ فِي الذَّهَابِ وَالْعَوْدَةِ، وَتَوَسَّمَ فِيهِ الذَّكَاءَ وَالْفِطْنَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَهُ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ، لَعَلَّ اللهَ يَهْدِي بِهِ الْجِيلَ الْجَدِيدَ.

فَدَعَاهُ إِلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ، وَأَخْبَرَهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ، وَأَوْصَاهُ بِكِتْمَانِ سِرِّهِ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ السِّحْرَ خِدَاعٌ وَوَهْمٌ، وَتَضْلِيلٌ لِلْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَأَنَّ السَّاحِرَ مُحْتَالٌ كَذَّابٌ، لَيْسَ لَهُ بَيْنَ النَّاسِ أَصْحَابٌ وَلَا أَحْبَابٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِهُمُومِ النَّاسِ، فَقَدْ مَاتَ لَدَيْهِ الْإِحْسَاسُ. وَقَدْ خَدَعَ النَّاسَ عَنْ حَقِيقَةِ الْمَلِكِ الَّذِي هُوَ مَخْلُوقٌ مِثْلُهُمْ، يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مِثْلَهُمْ، وَيَمْرَضُ كَمَرَضِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفِيَ نَفْسَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَشْفِيَ غَيْرَهُ.

ثُـمَّ أَخْبَـرَهُ أَنَّ الْإِلَهَ الْحَـقَّ هُوَ اللهُ خَالِقُ الْكَـوْنِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِمَّا تَـرَاهُ الْعُيُونُ وَمَا لَا تَـرَاهُ، وَمُبْدِعُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخَالِقُ الْمَوْتِ وَالْحَيَـاةِ. وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فَأُعْجِـبَ الْغُلَامُ بِكَلَامِ الرَّاهِـبِ، وَجَلَسَ مِنْهُ مَجْلِسَ التِّلْمِيـذِ وَالطَّالِبِ، وَأَخَذَ يَسْـأَلُهُ عَنْ مَعْنَى التَّوْحِيدِ، وَكُلَّمَا أَجَابَهُ طَلَبَ الْمَزِيدَ، وَالرَّاهِبُ بِهِ مَسْـرُورٌ سَعِيدٌ. وَالْغُلَامُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَنْقَطِعُ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى السَّـاحِرِ، وَكُلَّمَا ذَهَبَ أَوْ رَجَعَ مَرَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ وَيَسْـأَلُهُ عَنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَكَيْفَ بَلَّغَ الرُّسُلُ إِلَى النَّاسِ رِسَالَاتِهِ، وَالرَّاهِبُ يُجِيبُهُ مُعْجَبًا بِأَخْلَاقِهِ وَسِمَاتِهِ.

وَكَانَ الْغُلَامُ ـ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ـ إِذَا ذَهَبَ إِلَى السَّـاحِرِ تَأَخَّرَ عَلَيْهِ، فَيَضْرِبُهُ السَّـاحِرُ وَيُؤْلِمُـهُ. وَإِذَا رَجَـعَ إِلَى أَهْلِهِ تَأَخَّرَ عَلَيْهِمْ، فَيَضْرِبُونَـهُ وَيُؤْلِمُونَهُ، وَكَثُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَشَكَا إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:

ـ إِذَا ذَهَبْتَ إِلَى السَّـاحِرِ فَقُـلْ لَهُ: أَخَّرَنِي أَهْلِي، وَإِذَا رَجَعْـتَ إِلَى أَهْلِكَ فَقُلْ لَهُمْ: أَخَّرَنِي السَّاحِرُ.

وَتَوَطَّـدَتِ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْغُلَامِ وَالرَّاهِبِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَنْقَطِعُ عَنِ السَّـاحِرِ، فَاشْـتَدَّ الصِّرَاعُ فِي دَاخِلِهِ، وَلَمْ تَسْـتَطِعْ نَفْسُهُ أَنْ تَحْسِـمَ أَيَّ الرَّجُلَيْنِ عَلَى صَوَابٍ: الرَّاهِبُ الْعَابِدُ أَمِ السَّـاحِرُ الْكَذَّابُ؟! وَالرَّاهِبُ يَشْعُرُ بِمَا يَدُورُ فِي نَفْسِهِ، لَكِنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يَتْرُكَهُ لِيَخْتَارَ بِنَفْسِهِ.

وَذَاتَ يَـوْمٍ، وَفِي أَثْنَـاءِ رُجُـوعِ الْغُلَامِ مِـنْ دَرْسِ السَّـاحِرِ، وَذِهْنُهُ شَـارِدٌ وَعَقْلُهُ حَائِرٌ، إِذْ رَأَى النَّاسَ بَيْنَ مَفْزُوعٍ وَخَائِفٍ وَمُتَحَرِّكٍ وَوَاقِفٍ، وَقَدِ امْتَلَأَ بِهِمُ الطَّرِيقُ، يُرِيدُونَ عُبُورَ الْمَضِيقِ، إِلَى بِئْرِ الْمَاءِ الْعَذْبِ. وَمَا إِنْ رَأَوُا الْغُلَامَ حَتَّى اسْتَغَاثُوا بِهِ:

ـ أَنْقِذْنَا مِنْ هَذَا الْأَسَدِ الْمُخِيفِ، الَّذِي يَمْنَعُنَا مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَاءِ.

فَقَالَ الْغُلَامُ فِي نَفْسِهِ:

- الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ السَّاحِرِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ أَمْ أَمْرُ الرَّاهِبِ.

ثُمَّ أَخَذَ حَجَرًا مِنْ جَانِبِ الطَّرِيقِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ:

- اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هَذَا الْأَسَدَ بِهَذَا الْحَجَرِ.

ثُمَّ أَلْقَى الْحَجَرَ عَلَى الْأَسَدِ، فَخَرَّ صَرِيعًا فِي الْحَالِ! فَأَخَذَ النَّاسُ يَصِيحُونَ فِي فَرَحٍ وَدَهْشَةٍ:

- يَا لَكَ مِنْ سَاحِرٍ مَاهِرٍ، أَيُّهَا الْغُلَامُ الْبَارِعُ.

فَقَالَ لَهُمْ عَلَى الْفَوْرِ، وَقَدْ حَسَمَ فِي نَفْسِهِ الْأَمْرَ:

- لَيْسَ السِّحْرُ، إِنَّهَا إِرَادَةُ اللهِ وَأَمْرُهُ.

فَانْصَرَفَ عَنْهُ النَّاسُ لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُ، وَمَضَى هُوَ إِلَى الرَّاهِبِ لِيُخْبِرَهُ بِمَا حَدَثَ.

الْغُلَامُ الدَّاعِيَةُ

ذَهَبَ الْغُلَامُ إِلَى الرَّاهِبِ لِيُخْبِرَهُ بِمَا حَدَثَ لَهُ مَعَ الْأَسَدِ، وَلِيُخْبِرَهُ أَيْضًا بِأَنَّهُ قَدْ حَسَمَ الصِّرَاعَ مَعَ نَفْسِهِ إِلَى الْأَبَدِ، فَقَدِ اخْتَارَ اللهَ، وَلَنْ يَسْلُكَ أَبَدًا طَرِيقًا سِوَاهُ.

فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:

- أَيْ بُنَيَّ.. إِنَّكَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ.

فَتَرَكَ الْغُلَامُ الرَّاهِبَ وَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ بِالتَّصْمِيمِ وَالْعَزِيمَةِ، أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ جَمِيعًا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ؛ فَهُوَ الَّذِي يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ، وَيَرْزُقُهُمْ وَيَشْفِيهِمْ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ.

وَكَانَ الْغُلَامُ قَدْ شَاعَ بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ذِكْرُهُ، وَذَاعَ بَيْنَ النَّاسِ صِيتُهُ وَخَبَرُهُ، بَعْدَ أَنْ قَتَلَ الْأَسَدَ الْمُرْعِبَ الْخَطِيرَ، بِحَجَرٍ حَقِيرٍ صَغِيرٍ، فَكَانُوا يَأْتُونَهُ لِشِفَاءِ أَمْرَاضِهِمْ وَعِلَاجِ أَوْلَادِهِمْ. فَكَانَ الْغُلَامُ إِذَا جَاءَهُ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ لِهَذَا الْغَرَضِ، قَالَ لَهُ بِهُدُوءٍ وَابْتِسَامٍ:

- إِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ شِفَاءَ أَحَدٍ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ وَحْدَهُ، فَآمِنْ بِاللهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَأَنَا أَدْعُوهُ لَكَ بِالشِّفَاءِ.

فَيُؤْمِنُ الْمَرِيضُ بِاللهِ، وَيَدْعُو الْغُلَامُ لَهُ بِالشِّفَاءِ، فَيُشْفَى الْمَرِيضُ بِإِذْنِ اللهِ. وَهَكَذَا صَارَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيَشْفِي الْمَرْضَى بِأَمْرِ اللهِ. وَسَمِعَ بِهَذَا الْأَمْرِ مُسْتَشَارٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ فَقَدَ بَصَرَهُ وَأُصِيبَ بِالْعَمَى. فَذَهَبَ إِلَى الْغُلَامِ حَامِلًا مَعَهُ الْهَدَايَا الْكَثِيرَةَ، وَقَالَ لَهُ:

- رُدَّ عَلَيَّ بَصَرِي، وَلَكَ كُلُّ هَذِهِ الْهَدَايَا.

فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ:

- إِنَّنِي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّما يَشْفِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ وَدَعَوْتَهُ شَفَاكَ.

فَآمَنَ مُسْتَشَارُ الْمَلِكِ بِاللهِ، وَدَعَا اللهَ أَنْ يَشْفِيَهُ فَشَفَاهُ، وَعَادَ إِلَى مُسْتَشَارِ الْمَلِكِ بَصَرُهُ، بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ وَرُشْدُهُ. وَعَرَفَ حَقِيقَةَ الْمَلِكِ الْكَذَّابِ وَالسَّاحِرِ الْمُخَادِعِ النَّصَّابِ، فَذَهَبَ إِلَى الْمَلِكِ عَازِمًا عَلَى أَنْ يَكْشِفَهُ أَمَامَ نَفْسِهِ، وَيُعَرِّفَهُ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ. فَلَمَّا رَآهُ الْمَلِكُ وَقَدْ عَادَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ سَأَلَهُ:

- مَنِ الَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

فَقَالَ الْمُسْتَشَارُ الْأَمِينُ:

- رَبِّي.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

- أَنَا؟!

فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَشَارُ فِي جُرْأَةٍ وَافْتِخَارٍ:

- رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَفَزِعَ الْمَلِكُ، وَسَأَلَهُ فِي غَضَبٍ:

- أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟!

فَأَجَابَهُ الْمُسْتَشَارُ فِي ثِقَةٍ:

- نَعَمْ.. رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَجُنَّ جُنُونُ الْمَلِكِ، وَثَارَ ثَوْرَةً شَدِيدَةً، وَأَمَرَ بِتَعْذِيبِهِ حَتَّى يَعْتَرِفَ عَلَى مَنْ

دَعَاهُ إِلَى ذَلِكَ. وَلَمْ يَتَحَمَّلِ الْمُسْتَشَارُ الْمُؤْمِنُ شِدَّةَ التَّعْذِيبِ، فَدَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجَاءُوا بِهِ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي قَالَ لَهُ فِي خُبْثٍ:

- أَيْ بُنَيَّ.. أَبَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تَرُدَّ عَلَى الْأَعْمَى بَصَرَهُ، وَتَشْفِيَ أَيَّ مَرِيضٍ مِنْ مَرَضِهِ؟!

فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ:

- إِنَّنِي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

- أَنَا؟!

فَرَدَّ عَلَيْهِ الْغُلَامُ:

- لَا.. رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَسَأَلَهُ الْمَلِكُ، وَقَدِ اسْتَشَاطَ غَضَبًا:

- أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟!

فَأَجَابَهُ الْغُلَامُ فِي ثِقَةٍ وَثَبَاتٍ:

- نَعَمْ.. رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَهَاجَ الْمَلِكُ وَثَارَ، وَأَمَرَ بِتَعْذِيبِهِ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ؛ حَتَّى يَدُلَّ عَلَى مَنْ عَلَّمَهُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، فَاعْتَرَفَ الْغُلَامُ مِنْ شِدَّةِ التَّعْذِيبِ وَالْآلَامِ عَلَى الرَّاهِبِ الْعَابِدِ، الَّذِي نَجَا مِنْ بَطْشِ الْمَلِكِ مِنْ عَشَرَاتِ السِّنِينَ.

وَجَاءَ الْجُنُودُ بِالرَّاهِبِ، وَخَيَّرَهُ الْمَلِكُ بَيْنَ الرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِ، وَبَيْنَ الْقَتْلِ بِطَرِيقَةٍ لَمْ تَخْطِرْ لِأَحَدٍ عَلَى بَالٍ. فَتَمَسَّكَ الرَّاهِبُ بِدِينِهِ، فَأَمَرَ

الْمَلِكُ جُنُودَهُ أَنْ يَنْشُـرُوهُ بِالْمِنْشَارِ، أَمَامَ الْغُلَامِ وَالْمُسْتَشَارِ. فَلَمْ يَفْزَعِ الرَّاهِبُ أَوْ يَرْتَعِدْ، وَاسْتَقْبَلَ الْقَتْلَ بِصَبْرٍ وَجَلَدٍ، وَمَضَى شَهِيدًا إِلَى جَنَّاتِ الْخُلْدِ.

ثُمَّ أَمَرَ الْمَلِكُ الْمُسْتَشَارَ بِالرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا أَلْحَقَهُ بِالرَّاهِبِ، فَأَبَى الْمُسْتَشَارُ تَـرْكَ الدِّينِ، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ صَاحِبٍ، لِهَذَا الشَّـهِيدِ الرَّاهِبِ. فَنَشَـرَهُ الْمَلِكُ بِالْمِنْشَـارِ، وَأَلْحَقَـهُ بِصَاحِبِهِ شَـهِيدًا مَعَ الْأَبْرَارِ. ثُمَّ جَاءَ الدَّوْرُ عَـلَى الْغُلَامِ الدَّاعِيَةِ الَّذِي أَصَرَّ هُوَ الْآخَرُ عَلَى دِينِهِ. فَقَرَّرَ الْمَلِكُ قَتْلَهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ.

مَلِكٌ بِلَا شَعْبٍ

أَمَرَ الْمَلِكُ بَعْضَ جُنُودِهِ أَنْ يَأْخُذُوا الْغُلَامَ إِلَى جَبَلٍ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَأَنْ يَصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغُوا قِمَّتَهُ خَيَّرُوا الْغُلَامَ بَيْنَ الرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِ وَبَيْنَ الْقَتْلِ رَمْيًا مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ. فَلَمَّا صَعِدُوا الْجَبَلَ دَعَا الْغُلَامُ رَبَّهُ قَائِلًا:

- اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ وَكَيْفَ شِئْتَ. إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

فَتَزَلْزَلَ الْجَبَلُ، وَسَقَطَ الْجُنُودُ، وَعَادَ الْغُلَامُ إِلَى الْمَلِكِ يَمْشِي يَدْعُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ، فَسَأَلَهُ الْمَلِكُ عَنِ الْجُنُودِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، فَأَخْبَرَهُ الْغُلَامُ أَنَّ اللهَ قَدْ كَفَاهُ شَرَّهُمْ، وَنَجَّاهُ مِنْ كَيْدِهِمْ.

فَأَمَرَ الْمَلِكُ مَجْمُوعَةً أُخْرَى مِنَ الْجُنُودِ أَنْ يَأْخُذُوا الْغُلَامَ فِي سَفِينَةٍ إِلَى وَسَطِ الْبَحْرِ، وَأَنْ يُلْقُوا بِهِ إِلَى قَاعِ الْبَحْرِ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَلَمَّا صَارُوا فِي مُنْتَصَفِ الْبَحْرِ دَعَا الْغُلَامُ رَبَّهُ قَائِلًا:

- اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ وَكَيْفَ شِئْتَ. إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

فَهَاجَ الْبَحْرُ وَمَاجَ، وَارْتَفَعَتِ الْأَمْوَاجُ، فَغَرِقَتِ السَّفِينَةُ وَمَنْ فِيهَا، وَنَجَا الْغُلَامُ وَحْدَهُ، فَعَادَ إِلَى الْمَلِكِ يَمْشِي يَدْعُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ، فَسَأَلَهُ الْمَلِكُ عَنْ جُنُودِهِ، فَأَخْبَرَهُ الْغُلَامُ أَنَّ اللهَ رَبَّهُ وَرَبَّ الْعَالَمِينَ قَدْ كَفَاهُ شَرَّهُمْ، وَنَجَّاهُ مِنْ كَيْدِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ الْغُلَامُ لِلْمَلِكِ:

- إِنْ أَرَدْتَ قَتْلِي، فَنَفِّذْ مَا آمُرُكَ بِهِ.

فَسَأَلَهُ الْمَلِكُ فِي خُضُوعٍ وَاسْتِسْلَامٍ:

- وَبِمَاذَا تَأْمُرُنِي أَيُّهَا الْغُلَامُ؟

فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ آمِرًا:

- اجْمَعْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، وَاصْلُبْنِي عَلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ، وَخُذْ سَهْمًا مِنْ سِهَامِي، ثُمَّ قُلْ بِأَعْلَى صَوْتٍ لَدَيْكَ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ ارْمِنِي بِالسَّهْمِ، فَسَأَمُوتُ بِأَمْرِ اللهِ.

فَنَفَّذَ الْمَلِكُ مَا أَمَرَهُ بِهِ الْغُلَامُ، وَجَمَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، وَأَخَذَ سَهْمًا مِنْ سِهَامِ الْغُلَامِ، وَقَالَ بِأَعْلَى صَوْتٍ لَدَيْهِ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ أَطْلَقَ السَّهْمَ فِي اتِّجَاهِ الْغُلَامِ، فَأَصَابَ السَّهْمُ خَدَّ الْغُلَامِ، فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ إِصَابَتِهِ، فَفَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى جَنَّةِ اللهِ وَمُسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ.

فَصَاحَ النَّاسُ جَمِيعًا:

- آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

وَهُنَا قَالَ أَعْوَانُ الْمَلِكِ وَمُسْتَشَارُوهُ:

- أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ لَقَدْ حَدَثَ مَا كُنْتَ تَخَافُ حُدُوثَهُ، وَوَقَعَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ وُقُوعَهُ.

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ فِي تَحَدٍّ وَعِنَادٍ:

- لَا بَأْسَ.. لَا بَأْسَ.. سَأَقْتُلُهُمْ كُلَّهُمْ، وَأَمْحُو مِنَ الْوُجُودِ دِينَهُمْ، كَمَا فَعَلْتُ مِنْ قَبْلُ! احْفِرُوا أُخْدُودًا عَظِيمًا فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، وَاجْعَلُوا عُمْقَهُ خَمْسَةَ أَمْتَارٍ، وَامْلَأُوهُ عَنْ آخِرِهِ بِالنَّارِ، وَانْصِبُوا لِي كُرْسِيًّا هُنَاكَ؛ حَتَّى أُخَيِّرَهُمْ

بِنَفْسِي بَيْنَ الْإِيمَانِ بِي أَوِ الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ وَالْهَلَاكِ.

وَتَمَّ حَفْرُ الْأُخْدُودِ، وَأُشْعِلَتْ فِيهِ النِّيرَانُ، وَجَلَسَ الْمَلِكُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَحَوْلَهُ الْجُنُودُ وَالْأَعْوَانُ. وَجِيءَ بِالْمُؤْمِنِينَ يَدْفَعُهُمْ جُنُودُ الْمَلِكِ دَفْعًا، وَيَسُوقُونَهُمْ إِلَى الْأُخْدُودِ سَوْقًا، فَيُنَادِيهِمُ الْمَلِكُ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّهِ:

- ارْجِعُوا عَنْ دِينِكُمْ، وَآمِنُوا بِي أَنَا رَبُّكُمْ، وَإِلَّا فَالْحَرْقُ بِالنَّارِ مَصِيرُكُمْ.

فَيَأْبَى الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ عِبَادَةَ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِمْ، وَيُفَضِّلُونَ الْمَوْتَ حَرْقًا بِالنَّارِ، عَنِ الرُّجُوعِ ثَانِيَةً إِلَى دِينِ الْكُفَّارِ، وَيُلْقُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الْأُخْدُودِ، فِي مَشْهَدٍ أَذْهَلَ الْمَلِكَ وَالْأَعْوَانَ وَالْجُنُودَ، قَائِلِينَ بِصَوْتٍ هَادِرٍ يَمْلَأُ أَرْكَانَ الْوُجُودِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَظَلَّتْ أَفْوَاجُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ تَتَتَابَعُ، وَإِلَى نِيرَانِ الْأُخْدُودِ تَتَدَافَعُ، رَافِضَةً الْكُفْرَ بِاللهِ، وَعِبَادَةَ رَبٍّ سِوَاهُ. وَالْمَلِكُ الْعَنِيدُ يُشَاهِدُ مَنْظَرَهُمْ، وَلَا يَهْتَزُّ لِمَقْتَلِهِمْ، كَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صَخْرٍ، وَجُنُودُهُ مِنْ حَوْلِهِ صُخُورٌ مِثْلُهُ، لَا يَشْعُرُونَ وَلَا يَحُسُّونَ كَأَنَّهُمْ مَوْتَى فِي صُورَةِ أَحْيَاءٍ.

وَكَانَ بَيْنَ الْجُمُوعِ الْمُؤْمِنَةِ أُسْرَةٌ آمَنَتْ كُلُّهَا بِاللهِ..

أَبٌ يُمْسِكُ طِفْلَيْهِ بِيَدَيْهِ، وَيَسْعَى بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ إِلَى الْأُخْدُودِ، يَرْجُو جَنَّةَ الرَّحِيمِ الْوَدُودِ، وَبِجِوَارِهِ الْأُمُّ تَضُمُّ رَضِيعَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَتَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهَا. وَمَا إِنْ أَبْصَرَ الطِّفْلَانِ النَّارَ حَتَّى قَالَا لِأَبِيهِمَا فِي خَوْفٍ:

- أَتُلْقِي بِنَا فِي النَّارِ يَا أَبَتَاهُ؟

فَقَالَ لَهُمَا أَبُوهُمَا فِي ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ:

- إِنَّهَا لَيْسَتْ نَارًا يَا حَبِيبَيَّ الصَّغِيرَيْنِ! إِنَّهَا الْجَنَّةُ، وَإِنِّي لَأَشُمُّ رِيحَهَا.

ثُمَّ قَفَزَ بِهِمَا فِي الْأُخْدُودِ، وَصَوْتُهُ يَمْلَأُ مِنْ حَوْلِهِ أَرْكَانَ الْوُجُودِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

أَمَّا الْأُمُّ فَلَمَّا هَمَّتْ بِالْقَفْزِ فِي الْأُخْدُودِ، تَذَكَّرَتْ رَضِيعَهَا الصَّغِيرَ، فَرَقَّ قَلْبُهَا لَهُ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ مِنَ النَّارِ، فَجَمُدَتْ فِي مَكَانِهَا تَنْظُرُ إِلَى رَضِيعِهَا. فَأَنْطَقَ اللهُ الرَّضِيعَ بِقُدْرَتِهِ، لِيَقُولَ لِأُمِّهِ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، سَمِعَتْهُ الْأُمُّ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،

فَازْدَادُوا إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، وَثَبَاتًا وَيَقِينًا بِرَحْمَةِ رَبِّهِمْ، فَاقْتَحَمُوا الْأُخْدُودَ بِنُفُوسٍ مُطْمَئِنَّةٍ بِالْفَوْزِ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ. وَسَمِعَهُ الْمَلِكُ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَلَمْ تَهْتَزَّ مِنْ أَجْسَادِهِمْ شَعْرَةٌ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ فِي عُيُونِهِمْ دَمْعَةٌ أَوْ عَبْرَةٌ، بَلِ ازْدَادُوا غَيْظًا وَحِقْدًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْهُمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ طِفْلًا رَضِيعًا وَلَا شَيْخًا عَجُوزًا وَلَا امْرَأَةً ضَعِيفَةً! فَصَارُوا حُكَّامًا بِلَا رَعِيَّةٍ، وَصَارَ مَلِكُهُمُ الظَّالِمُ مَلِكًا بِلَا شَعْبٍ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ!

قَالَ الطِّفْلُ الرَّضِيعُ لِأُمِّهِ:

- اصْبِرِي يَا أُمَّاهُ.. فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ.

فَضَمَّتِ الْأُمُّ رَضِيعَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَلْقَتْ فِي الْأُخْدُودِ بِنَفْسِهَا؛ لِتَلْحَقَ بِطِفْلَيْهَا وَزَوْجِهَا، وَتَنْعَمَ مَعَهُمْ فِي جَنَّةِ رَبِّهَا، أَحْيَاءً يُرْزَقُونَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَهَكَذَا فَازَ الْمُؤْمِنُونَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَهَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أَمَّا أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ وَمَلِكُهُمُ الْجَبَّارُ الْجَحُودُ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمْ نِيرَانُ الْجَحِيمِ، وَحَقَّ عَلَيْهِمْ حَرِيقُ جَهَنَّمَ الْمُقِيمُ. وَشَتَّانَ بَيْنَ نَارِ الدُّنْيَا الَّتِي دَخَلَهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَفَازُوا بَعْدَهَا بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَبَيْنَ نَارِ الْآخِرَةِ الْكُبْرَى الَّتِي سَيَصْلَاهَا الظَّالِمُونَ الْمُتَجَبِّرُونَ لَا يَحْيَوْنَ فِيهَا وَلَا يَمُوتُونَ. فَهَذِهِ هِيَ الْخَسَارَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

أَصْحَابُ الْفِيلِ

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

(الْفِيل: 1 ـ 5)

أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ

قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنْ نَصَارَى الْيَمَنِ فِي حَادِثَةٍ فَظِيعَةٍ شَنِيعَةٍ، فَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ ـ وَكَانَ نَصْرَانِيًّا ـ جَيْشًا ضَخْمًا جَرَّارًا لِغَزْوِ بِلَادِ الْيَمَنِ، وَإِنْهَاءِ حُكْمِ هَذَا الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْجَحُودِ، وَجَعَلَ عَلَى رَأْسِ هَذَا الْجَيْشِ أَمِيرَيْنِ مِنْ أَعْظَمِ قُوَّادِهِ، وَهُمَا أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةُ.

فَغَزَا هَذَا الْجَيْشُ بِلَادَ الْيَمَنِ، وَهَزَمَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَفَرَّ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْجَحُودُ يُرِيدُ النَّجَاةَ بِنَفْسِهِ، فَقُتِلَ غَرِيقًا فِي الْبَحْرِ، عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

وَخَضَعَتِ الْيَمَنُ لِجَيْشِ الْحَبَشَةِ، إِلَّا أَنَّ أَمِيرَيِ الْجَيْشِ تَنَازَعَا وَاخْتَلَفَا حَوْلَ الْحُكْمِ وَالْمُلْكِ، فَقَرَّرَا أَنْ يُبَارِزَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَمَنِ انْتَصَرَ اسْتَقَلَّ بِالْمُلْكِ وَحْدَهُ. فَتَقَاتَلَا وَتَبَارَزَا وَضَرَبَ أَرْيَاطُ أَبْرَهَةَ بِالسَّيْفِ فِي وَجْهِهِ، فَشَقَّ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَرَمَهُمَا ـ لِذَلِكَ سُمِّيَ أَبْرَهَةُ بِالْأَشْرَمِ ـ إِلَّا أَنَّ مُسَاعِدَ أَبْرَهَةَ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِ أَرْيَاطَ. فَخَضَعَ الْجَيْشُ كُلُّهُ لِأَمْرِ أَبْرَهَةَ، وَاسْتَقَلَّ أَبْرَهَةُ الْأَشْرَمُ بِحُكْمِ الْيَمَنِ.

أَرْسَلَ أَبْرَهَةُ الْهَدَايَا الْكَثِيرَةَ وَالْأَمْوَالَ الْوَفِيرَةَ إِلَى النَّجَاشِيِّ؛ لِيَرْضَى عَنْهُ، وَلِيَغْفِرَ لَهُ قَتْلَهُ لِصَاحِبِهِ، فَأُعْجِبَ بِهِ النَّجَاشِيُّ وَأَقَرَّهُ عَلَى حُكْمِ الْيَمَنِ.

فَسُـرَّ أَبْرَهَةُ لِذَلِكَ سُـرُورًا عَظِيمًا، وَأَرْسَلَ إِلَى النَّجَاشِـيِّ يُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ سَوْفَ يَبْنِي لَهُ كَنِيسَـةً عَظِيمَةً بِصَنْعَاءَ، وَسَـوْفَ يَدْعُـو الْعَرَبَ جَمِيعًا إِلَى الْحَـجِّ إِلَيْهَا بَدَلًا مِنْ حَجِّهِمْ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَبَارَكَ النَّجَاشِيُّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ، وَحَثَّهُ عَلَى الْإِسْرَاعِ فِي تَنْفِيذِهَا.

اجْتَهَـدَ أَبْرَهَـةُ فِي بِنَاءِ الْكَنِيسَـةِ، وَاسْـتَعْمَلَ كُلَّ مَنْ قَـدَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْـلِ الْيَمَنِ، وَسَـخَّرَهُمْ فِي بِنَائِهَا سُـخْرَةً شَـدِيدَةً، لِدَرَجَةِ أَنَّـهُ كَانَ يَقْطَعُ يَدَ كُلِّ مَـنْ يَتَأَخَّرُ عَنِ

الْعَمَلِ إِلَى أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ! فَتَمَّ لَهُ بِنَاؤُهَا فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، وَأَخَذَ يُزَخْرِفُهَا وَيُزَيِّنُهَا بِكُلِّ أَنْوَاعِ الزَّخَارِفِ، وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ قَصْرِ بِلْقِيسَ كُلَّ مَا قَدَرَ عَلَى نَقْلِهِ مِنْ تُحَفٍ وَأَعْمِدَةٍ وَمَفَارِشَ، حَتَّى فَرَشَهَا كُلَّهَا بِالْأَثَاثِ الْفَاخِرِ، وَزَيَّنَ جُدْرَانَهَا بِالْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنِ ارْتِفَاعِهَا الْهَائِلِ وَاتِّسَاعِهَا الْمُذْهِلِ. وَقَدْ سَمَّتْهَا الْعَرَبُ الْقُلَّيْسَ.

ثُمَّ أُعْلِنَ فِي الْيَمَنِ كُلِّهَا أَنَّ الْمَلِكَ قَدْ بَنَى لَكُمْ كَنِيسَةً عَظِيمَةً لِتَحُجُّوا إِلَيْهَا بَدَلًا مِنَ الْكَعْبَةِ، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا. فَمَا أَطَاعَهُ طَائِعٌ، وَلَا زَارَ كَنِيسَتَهُ زَائِرٌ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ جَمِيعًا كَانُوا يُعَظِّمُونَ الْكَعْبَةَ تَعْظِيمًا شَدِيدًا، وَكَانَتْ لَهَا فِي نُفُوسِهِمْ مَكَانَةٌ لَا تُزَحْزِحُهَا جِبَالُ الذَّهَبِ وَلَا وُدْيَانُ الْفِضَّةِ! وَلَا يَرَوْنَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَكَانًا أَوْ بُنْيَانًا يُسَاوِيهَا فِي الشَّرَفِ وَالْمَجْدِ، أَوْ يُقَارِبُهَا فِي عُلُوِّ الْمَكَانَةِ وَسُمُوِّ الْمَنْزِلَةِ!

وَلِذَلِكَ ذَهَبَ أَحَدُ الْعَرَبِ إِلَى الْقُلَّيْسِ، وَغَافَلَ حُرَّاسَهَا وَعُمَّالَهَا، وَقَضَى حَاجَتَهُ عَلَى أَثَاثِهَا الْفَاخِرِ! كَأَنَّهُ يَقُولُ لِأَبْرَهَةَ إِنَّ كَنِيسَتَكَ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ مَا دُمْتَ سَتُقَارِنُهَا بِالْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ!

وَلَمَّا عَلِمَ أَبْرَهَةُ بِذَلِكَ هَاجَ وَمَاجَ، وَثَارَ وَفَارَ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ هَذَا الْعَرَبِيِّ؛ لِيَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ الِانْتِقَاصَ مِنْ قَدْرِ أَبْرَهَةَ أَوْ كَنِيسَتِهِ. فَأَخْبَرَهُ أَعْوَانُهُ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ فَعْلَتَهُ وَفَرَّ هَارِبًا.

فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَنْتَقِمَنَّ مِنَ الْعَرَبِ كُلِّهِمْ فِي أَعَزِّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ.. فِي بَيْتِهِمُ الْمُعَظَّمِ وَكَعْبَتِهِمُ الْمُشَرَّفَةِ! وَأَقْسَمَ لَيَهْدِمَنَّ بُنْيَانَهَا شِبْرًا شِبْرًا، وَلَيَنْقُضَنَّ أَحْجَارَهَا حَجَرًا حَجَرًا؛ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا عَلَى الْأَيَّامِ ذِكْرٌ وَلَا أَثَرٌ!!

ثُـمَّ خَرَجَ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ جَرَّارٍ، لَمْ تَسْـمَعْ بِهِ الْعَرَبُ مِنْ قَبْـلُ ضَخَامَةً وَكَثْرَةً، تَتَقَدَّمُهُ الْأَفْيَالُ الْمُدَرَّبَةُ بِأَشْـكَالِهَا الْمُرْعِبَةِ، وَعَلَى رَأْسِـهَا الْفِيلُ الْعَظِيمُ «مَحْمُودٌ»؛ قَاصِدًا هَدْمَ الْكَعْبَةِ وَالِانْتِقَامَ لِكَنِيسَتِهِ.

فَخَـرَجَ لِقِتَالِهِ بَعْضُ عَرَبِ الْيَمَنِ وَمَنْ جَاوَرَهُـمْ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَأَسَـرَ زَعِيمَهُمْ وَأَخَذَهُ مَعَهُ مُقَيَّدًا لِيُشَـاهِدَ بِعَيْنِهِ هَدْمَ الْكَعْبَةِ! ثُمَّ خَرَجَ لِقِتَالِ أَبْرَهَةَ جَيْشٌ آخَرُ مِنْ شُجْعَانِ الْعَرَبِ وَفُرْسَانِهِمْ، يُرِيدُونَ حِمَايَةَ بَيْتِهِمُ الْمُقَدَّسِ، وَصِيَانَةَ كَعْبَتِهِـمُ الْمُشَـرَّفَةِ مِنْ جَيْشِ هَذَا الْأَشْـرَمِ. لَكِـنَّ مَعْرَكَتَهُمْ مَعَهُ كَانَتْ مَحْسُـومَةً، وَنَتِيجَتُهَا مُسْـبَقًا كَانَـتْ مَعْلُومَةً؛ فَجَيْشُ أَبْرَهَةَ كَانَ يَفُوقُهُمْ عَـدَدًا وَعُدَّةً، فَهَزَمَهُمْ وَمَضَى إِلَى طَرِيقِهِ.

وَصَلَ أَبْرَهَةُ إِلَى مَشَـارِفِ مَكَّةَ، وَعَسْـكَرَ بِجَيْشِـهِ عَلَى حُدُودِهَا، وَأَرْسَـلَ سَرِيَّةً تَسْـتَطْلِعُ أَحْوَالَ أَهْلِهَا، وَمَدَى اسْتِعْدَادِهِمْ لِحَرْبِهِ وَقِتَالِهِ. فَأَغَارَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ عَلَى مَرَاعِي قُرَيْشٍ سَدَنَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَخُدَّامِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ، وَأَخَذَتْ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ إِبِلٍ وَأَغْنَامٍ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا مِئَتَا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ سَيِّدِ قُرَيْشٍ وَزَعِيمِهَا وَجَدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ النَّدْوَةِ تَبْحَثُ هَذَا الْأَمْرَ الْخَطِيرَ، وَتُنَاقِشُ كَيْفَ تَحْمِي الْكَعْبَـةَ مِنْ هَذَا الْمَلِكِ وَجَيْشِـهِ، وَاسْـتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْـتَطِيعُونَ قِتَالَ هَذَا الْجَيْشِ الضَّخْمِ، وَلَا الِانْتِصَارَ عَلَى هَذِهِ الْأَفْيَالِ الْمُرْعِبَةِ.

وَذَهَبَ زَعِيمُهُمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لِمُقَابَلَةِ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمِ.

الطَّيْرُ الْأَبَابِيلُ

ذَهَبَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ لِمُقَابَلَةِ أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمِ فِي مُعَسْكَرِهِ عَلَى حُدُودِ مَكَّةَ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا مَهِيبَ الطَّلْعَةِ حَسَنَ الْمَنْظَرِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَى أَبْرَهَةَ وَدَخَلَ عَلَيْهِ، أَجَلَّهُ أَبْرَهَةُ وَقَدَّرَهُ، وَنَزَلَ عَنْ كُرْسِيِّهِ وَجَلَسَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى الْبِسَاطِ، وَسَأَلَهُ قَائِلًا:

- مَا حَاجَتُكَ؟ وَمَا الَّذِي جَاءَ بِكَ؟

فَأَجَابَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ قَائِلًا:

- حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مِئَتَيْ بَعِيرٍ لِي، اسْتَوْلَى عَلَيْهَا جُنُودُهُ.

فَقَالَ لَهُ أَبْرَهَةُ مُتَعَجِّبًا:

- لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، وَلَكِنَّنِي زَهِدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي؛ أَتُكَلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعِيرٍ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا جُنُودِي، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ، وَلَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟!

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ كَلِمَتَهُ الْمَشْهُورَةَ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ:

- إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ (أَيْ صَاحِبُهَا)، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ وَيَحْمِيهِ.

فَقَالَ لَهُ أَبْرَهَةُ فِي غُرُورٍ وَتَكَبُّرٍ:

- مَا كَانَ لِيَحْمِيَهُ مِنِّي! سَأَهْدِمُهُ حَجَرًا حَجَرًا، وَسَأَمْحُو أَثَرَهُ مِنَ الْوُجُودِ!

وَرَدَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، وَأَمَرَ جَيْشَهُ بِأَنْ يَسْتَعِدَّ غَدًا لِهَدْمِ

الْكَعْبَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ بِأَنْ تُرْبَطَ أَرْكَانُهَا بِالسَّلَاسِلِ، ثُمَّ يَجُرَّهَا الْفِيلُ «مَحْمُودٌ»، فَيُزِيلَهَا كُلَّهَا مِنَ الْوُجُودِ.

فَأَسْرَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ يَأْمُرُهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ هَذَا الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، وَجَيْشِهِ الْكَثِيفِ الْجَرَّارِ. وَأَمْسَكَ هُوَ بِبَابِ الْكَعْبَةِ، وَأَخَذَ يَدْعُو اللهَ بِحُرْقَةٍ أَنْ يَحْمِيَ بَيْتَهُ.

وَفِي الصَّبَـاحِ تَحَرَّكَ أَبْرَهَةُ بِجَيْشِـهِ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، وَأَمَرَ الْفِيـلَ «مَحْمُودًا» بِالتَّقَدُّمِ إِلَيْهَـا، لَكِـنَّ الْفِيلَ بَـرَكَ عَـلَى الْأَرْضِ وَلَمْ يَتَقَـدَّمْ خُطْوَةً وَاحِـدَةً! فَوَخَـزَهُ الْجُنُودُ بِالسِّـهَامِ وَجَلَدُوهُ بِالسِّـيَاطِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ!! فَوَجَّهُوهُ نَحْوَ الْيَمَنِ فَقَامَ يُهَرْوِلُ، فَأَعَـادُوهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَبَرَكَ مَرَّةً ثَانِيَةً! فَوَجَّهُوهُ نَاحِيَةَ الْبَحْرِ فَقَامَ يَجْرِي، فَأَعَادُوهُ إِلَى الْكَعْبَةِ فَبَرَكَ مَرَّةً ثَالِثَةً!! فَأَخَذُوا فِي تَعْذِيبِهِ حَتَّى يَقُومَ، فَمَا تَحَرَّكَ خُطْوَةً وَاحِدَةً!!

وَظَلُّوا هَكَذَا جُزْءًا كَبِيرًا مِنَ النَّهَارِ، حَتَّى تَعِبَ الْجُنُودُ، وَمَلَّ أَبْرَهَةُ وَسَئِمَ. وَأَهْلُ مَكَّةَ يُشَاهِدُونَهُمْ مِنْ فَوْقِ الْجِبَالِ وَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَجَبِ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْفِيلِ. فَاقْتَرَحَ أَبْرَهَةُ أَنْ يُقَدِّمُوا فِيلًا آخَرَ، فَاقْتَدَتِ الْفِيَلَةُ كُلُّهَا بِقَائِدِهَا، وَبَرَكَتْ كَمَا بَرَكَ، وَرَفَضَتْ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنَ الْكَعْبَةِ أَوْ تَمَسَّهَا بِسُوءٍ!

وَفَجْأَةً أَظْلَمَتِ السَّمَاءُ، وَاخْتَفَى الضِّيَاءُ، وَعَمَّ الظَّلَامُ، وَانْتَشَرَ الْغَمَامُ، وَامْتَلَأَ الْأُفُقُ بِجَمَاعَاتٍ مِنَ الطُّيُورِ، كَانَتْ هِيَ قِطَعَ الْغَمَامِ الَّتِي جَاءَتْ بِالظَّلَامِ، وَجَاءَتْ أَيْضًا بِالْمَوْتِ الزُّؤَامِ لِأَبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ! جَاءَتْ هَذِهِ الطُّيُورُ بِالْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ لِأَبْرَهَةَ

وَجَيْشِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ أَحْجَامِهَا وَجَمَالِ أَشْكَالِهَا؛ فَقَدْ كَانَتْ طُيُورًا خُضْرًا لَهَا مَنَاقِيرُ صُفْرٌ، تُشْبِهُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ عَصَافِيرَ الْجَنَّةِ!!

جَاءَتْ هَذِهِ الطُّيُورُ بِأَعْدَادٍ كَثِيرَةٍ.. يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ، فَأَحَاطَتْ بِأَبْرَهَةَ وَجَيْشِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَفِي مِنْقَارِ كُلٍّ مِنْهَا حَجَرٌ صَغِيرٌ، وَفِي رِجْلَيْهِ حَجَرَانِ آخَرَانِ.. حَجْمُ الْحَجَرِ مِثْلُ حَبَّةِ الْحِمَّصِ أَوِ الْعَدَسِ، لَكِنَّهُ حَجَرٌ قَاتِلٌ.. حَجَرٌ شَدِيدٌ صُلْبٌ مُدَبَّبٌ يُشْبِهُ الرَّصَاصَةَ.. حَجَرٌ مِنْ سِجِّيلٍ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْأَحْيَاءِ إِلَّا قَتَلَهُ!

أَسْقَطَتْ هَذِهِ الطُّيُورُ مَا مَعَهَا مِنْ أَحْجَارٍ، عَلَى هَذَا الْجَيْشِ الْعَرَمْرَمِ الْجَرَّارِ، كَأَنَّهَا طَائِرَاتٌ حَرْبِيَّةٌ، أَوْ رَاجِمَاتٌ جَوِّيَّةٌ، فَمَنْ أَصَابَهُ الْحَجَرُ فِي رَأْسِهِ خَرَّ صَرِيعًا فِي الْحَالِ، وَمَنْ أَصَابَهُ فِي جِسْمِهِ اخْتَرَقَ جِلْدَهُ وَخَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَتَرَكَ صَاحِبَهُ مَفْزُوعًا يُعَانِي الْمَوْتَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَيَتَوَقَّعُهُ فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ.

فَهُزِمَ الْجَيْشُ شَرَّ هَزِيمَةٍ، وَتَفَرَّقَ الْجُنُودُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، يَبْحَثُونَ عَنْ طَرِيقٍ لِلْفِرَارِ وَالنَّجَاةِ.

مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ فِي الْحَالِ، وَصَارَ جَسَدُهُ كَالتِّبْنِ أَوْ وَرَقِ الشَّجَرِ الْجَافِّ الَّذِي تَأْكُلُهُ الْبَهَائِمُ لَا وَزْنَ لَهُ وَلَا قِيمَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ بِإِصَابَتِهِ يُرِيدُ النَّجَاةَ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ مَاتَ فِي الطَّرِيقِ بَعْدَ أَنْ تَسَاقَطَتْ أَعْضَاؤُهُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ عُضْوًا عُضْوًا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُصِبْهُ الْحَجَرُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ عَادَ إِلَى الْيَمَنِ وَأَخْبَرَ أَهْلَهَا بِمَا حَدَثَ لِلْجَيْشِ!

وَكَانَ أَبْرَهَةُ مِمَّنْ أُصِيبَ فِي جَسَدِهِ، وَلَمْ يَمُتْ إِلَّا فِي عَاصِمَةِ مُلْكِهِ، وَقَدْ تَشَقَّقَ صَدْرُهُ وَخَرَجَ مِنْهُ قَلْبُهُ؛ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ

تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ التَّجَرُّؤَ عَلَى بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ وَإِرَادَتَهُ بِسُوءٍ أَوْ مَكْرُوهٍ.

وَهَكَـذَا حَمَـى اللهُ بَيْتَهُ، وَقَتَـلَ أَصْحَابَ الْفِيـلِ بِجُنْدٍ مِنْ عِنْـدِهِ، وَكَانَ لَهُ وَحْدَهُ الْفَضْـلُ وَالْمِنَّـةُ عَلَى قُرَيْـشٍ وَالْعَرَبِ أَجْمَعِينَ. وَقَدْ سَـمَّتِ الْعَرَبُ هَـذَا الْعَامَ عَامَ الْفِيلِ، وَفِيهِ وُلِدَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَـلِينَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النِّعْمَةُ الْعُظْمَى لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَالرَّحْمَةُ الْكُبْرَى لِكُلِّ الْمَوْتَى وَالْأَحْيَاءِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ

أَصْحَابُ السَّفِينَةِ:

س1: كَيْفَ اسْتَغَلَّ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ حُبَّ بَنِي آدَمَ لِلدِّينِ فِي تَزْيِينِ الشِّرْكِ لَهُمْ؟

س2: مَا هِيَ خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ فِي إِضْلَالِ بَنِي آدَمَ وَصَرْفِهِمْ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؟ اشْرَحْ ذَلِكَ.

س3: مَتَى ظَهَرَ الشِّرْكُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ؟ وَمَا أَسْمَاءُ أَوَّلِ أَصْنَامٍ عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللهِ؟ وَكَمْ كَانَ عَدَدُهَا؟

س4: مَا اسْمُ أَوَّلِ رَسُولٍ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ وَكَمْ عَاشَ فِي قَوْمِهِ؟

س5: كَيْفَ اسْتَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةَ نَبِيِّهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَمَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ؟

س6: لِمَاذَا حَارَبَ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتَهُ؟ وَبِمَاذَا اتَّهَمُوهُ؟

س7: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ. هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَذْكُرَ السَّبَبَ؟

س8: مَاذَا كَانَتْ دَعْوَةُ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ؟ وَهَلِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَتَهُ؟

س9: مَا الشَّيْءُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ نُوحًا أَنْ يَصْنَعَهُ؟ وَلِمَاذَا؟ وَكَيْفَ صَنَعَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

س10: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِفَ سَفِينَةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَكَيْفَ حَفِظَتْ هَذِهِ السَّفِينَةُ أَجْنَاسَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْغَرَقِ؟

س11: اذْكُرْ عَلَامَةَ الطُّوفَانِ. وَمَاذَا فَعَلَ نُوحٌ عِنْدَ ظُهُورِهَا؟ وَهَلْ هَلَكَ مِنْ أَهْلِهِ أَحَدٌ؟ وَلِمَاذَا؟

س12: مَنْ هُمْ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ؟ وَكَيْفَ نَجَّاهُمُ اللهُ مِنَ الْغَرَقِ؟

أَصْحَابُ الْحِجْرِ:

س1: أَيْنَ كَانَتْ تَسْكُنُ قَبِيلَةُ ثَمُودَ؟ وَمَا الْمُمَيِّزَاتُ الَّتِي تَتَمَيَّزُ بِهَا مِنْطَقَتُهُمْ؟

س2: بِمَاذَا كَانَ يَتَمَيَّزُ أَهْلُ ثَمُودَ؟ وَمَا أَثَرُ مِهْنَتِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَقَرْيَتِهِمْ؟

س3: اُذْكُرِ النِّعَمَ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ ثَمُودَ. وَكَيْفَ اسْتَغَلَّ أَهْلُ ثَمُودَ هَذِهِ النِّعَمَ؟

س4: مَا اسْمُ النَّبِيِّ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ؟ وَهَلْ كَانَ غَرِيبًا عَنْهُمْ؟ وَبِمَاذَا أَمَرَهُمْ؟

س5: كَيْفَ اسْتَقْبَلَتْ ثَمُودُ دَعْوَةَ نَبِيِّهِمْ؟ وَكَيْفَ عَامَلَهُ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ؟

س6: مَاذَا طَلَبَتْ ثَمُودُ مِنْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلِيلًا عَلَى رِسَالَتِهِ؟ وَلِمَاذَا طَلَبُوا ذَلِكَ؟

س7: هَلْ آمَنَتْ ثَمُودُ بِالْمُعْجِزَةِ الَّتِي أَتَى بِهَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَلِمَاذَا؟

س8: مَا بُنُودُ خُطَّةِ قَتْلِ النَّاقَةِ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا زُعَمَاءُ ثَمُودَ؟ وَكَيْفَ نَفَّذُوهَا؟

س9: هَلْ حَاوَلَتْ ثَمُودُ قَتْلَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَلِمَاذَا؟ وَكَيْفَ نَجَّى اللهُ نَبِيَّهُ مِنْهُمْ؟

س10: مَا نَوْعُ الْعَذَابِ الَّذِي أَهْلَكَ اللهُ بِهِ ثَمُودَ؟ وَمَتَى أَصَابَهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ؟

س11: مَا مَصِيرُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ؟ وَإِلَى أَيْنَ ذَهَبُوا؟

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ / أَصْحَابُ مَدْيَنَ:

س1: أَيْنَ كَانَ يَسْكُنُ أَصْحَابُ مَدْيَنَ؟ وَلِمَاذَا عُرِفُوا بِأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ؟

س2: مَا الصِّفَاتُ الذَّمِيمَةُ وَالْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا أَصْحَابُ مَدْيَنَ؟

س3: مَنِ الرَّسُولُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ؟ وَمَا نَسَبُهُ فِيهِمْ؟

س4: كَيْفَ اسْتَقْبَلَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ رِسَالَةَ نَبِيِّهِمْ وَدَعْوَةَ رَسُولِهِمْ؟ وَلِمَاذَا؟

س5: لِمَاذَا لُقِّبَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَطِيبِ الْأَنْبِيَاءِ؟

س6: كَيْفَ كَانَ تَهْدِيدُ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ لِنَبِيِّهِمْ بِالْقَتْلِ عَلَامَةً فَارِقَةً فِي حَيَاتِهِمْ؟

س7: مَا الَّذِي مَنَعَ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ مِنْ تَنْفِيذِ تَهْدِيدِهِمْ بِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س8: بِمَاذَا دَعَا شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ؟ وَلِمَاذَا؟

س9: مَا نَوْعُ الْعِقَابِ الَّذِي عَاقَبَ اللهُ بِهِ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ؟ وَهَلِ اخْتَلَفَ عَنْ عِقَابِ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ وَلِمَاذَا؟

أَصْحَابُ السَّبْتِ:

س1: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ يَوْمِ السَّبْتِ فِي شَرِيعَةِ الْيَهُودِ؟

س2: مَا مِهْنَةُ أَهْلِ أَيْلَةَ؟ وَمَا أَقْسَامُهُمْ تِجَاهَ يَوْمِ السَّبْتِ؟

س3: مَا حُجَّةُ الْغَافِلِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ يَوْمَ السَّبْتِ؟ وَهَلْ تُوَافِقُهُمْ عَلَيْهَا؟

س4: مَا الْبَلَاءُ الَّذِي ابْتَلَى اللهُ بِهِ أَهْلَ أَيْلَةَ؟ وَلِمَاذَا؟

س5: كَيْفَ احْتَالَ أَهْلُ أَيْلَةَ عَلَى حُكْمِ اللهِ بِعَدَمِ الصَّيْدِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ؟

س6: مَاذَا فَعَلَ الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ إِزَاءَ مُخَالَفَةِ الْغَافِلِينَ لِأَمْرِ اللهِ؟

س7: انْقَسَمَ الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ إِلَى فَرِيقَيْنِ. إِلَى أَيِّهِمَا تَمِيلُ؟ وَلِمَاذَا؟

س8: بِمَاذَا أَجَابَ الْوَاعِظُونَ عَلَى سُؤَالِ إِخْوَانِهِمُ الصَّالِحِينَ حَوْلَ وَعْظِهِمْ لِلْمُخَالِفِينَ؟

س9: اذْكُرِ الْعِقَابَ الَّذِي عَاقَبَ اللهُ بِهِ الْمُخَالِفِينَ مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ، وَكَيْفَ حَدَثَ؟

أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ:

س1: لِمَاذَا أَرْسَلَ اللهُ إِلَى أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ ثَلَاثَةَ رُسُلٍ وَلَيْسَ رَسُولًا وَاحِدًا؟

س2: كَيْفَ كَانَ حَالُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ؟ وَمَا مَظَاهِرُ شِرْكِهِمْ بِاللهِ؟

س3: هَلْ ذَهَبَ الرُّسُلُ الثَّلَاثَةُ إِلَى أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَ أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ دَعْوَتَهُمْ؟

س4: مَا الدَّعْوَةُ الَّتِي كَانَ يَدْعُو بِهَا النَّجَّارُ الْفَقِيرُ دَائِمًا؟ وَأَيْنَ كَانَ يَدْعُو بِهَا؟ وَلِمَاذَا؟

س5: فِي أَيِّ مَكَانٍ اجْتَمَعَ الرُّسُلُ الثَّلَاثَةُ؟ وَمَاذَا فَعَلَ أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ؟

س6: مَاذَا قَالَ النَّجَّارُ الْفَقِيرُ لِأَهْلِ قَرْيَتِهِ؟ وَكَيْفَ كَانَ رَدُّهُمْ عَلَيْهِ؟

س7: مَا جَزَاءُ النَّجَّارِ الْفَقِيرِ عِنْدَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ – ؟ وَكَيْفَ عَرَفْنَا هَذَا الْجَزَاءَ؟

س8: كَيْفَ أَهْلَكَ اللهُ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ:

س1: مَا النِّعَمُ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ؟ وَكَيْفَ كَانَ يَشْكُرُ اللهَ عَلَيْهَا؟

س2: مَا الَّذِي قَرَّرَهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَعْدَ أَنْ جَمَعَ مَحْصُولَ حَدِيقَتِهِ؟ وَمَاذَا كَانَ رَدُّ فِعْلِ أَبْنَائِهِ؟

س3: كَيْفَ أَقْنَعَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَبْنَاءَهُ الثَّلَاثَةَ بِحَقِّ الْفُقَرَاءِ فِي جُزْءٍ مِنْ مَحْصُولِهِمْ؟

س4: بِمَاذَا وَصَّى الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَبْنَاءَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ؟ وَلِمَاذَا؟

س5: هَلْ نَفَّذَ الْأَبْنَاءُ الثَّلَاثَةُ وَصِيَّةَ أَبِيهِمْ؟ وَمَاذَا كَانَ شُعُورُ الْفُقَرَاءِ تِجَاهَهُمْ؟

س6: هَلِ اسْتَطَاعَ الْأَخُ الْأَوْسَطُ أَنْ يُقْنِعَ أَخَوَيْهِ بِرَأْيِهِ؟ وَلِمَاذَا؟

س7: مَا الْأَمْرُ الَّذِي بَيَّتَهُ الْأَبْنَاءُ الثَّلَاثَةُ وَعَزَمُوا عَلَى تَحْقِيقِهِ قَبْلَ بُزُوغِ الْفَجْرِ؟

س8: مَا حُجَّةُ الْأَبْنَاءِ الثَّلَاثَةِ فِي عَدَمِ إِعْطَاءِ الْفُقَرَاءِ حَقَّهُمْ؟ وَهَلْ تُوَافِقُهُمْ عَلَيْهَا؟

س9: كَيْفَ عَاقَبَ اللهُ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءَ الْجَاحِدِينَ؟ وَهَلِ ارْتَكَبُوا مَا يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ؟

س10: هَلِ اعْتَرَفَ الْإِخْوَةُ الثَّلَاثَةُ بِذَنْبِهِمْ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

أَصْحَابُ الْكَهْفِ:

س1: مَنِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْتَلُّونَ بِلَادَ الشَّامِ قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وَمَا دِيَانَتُهُمْ؟

س2: كَيْفَ عَامَلَ الْمَلِكُ الظَّالِمُ الْعَنِيدُ أَتْبَاعَ الدِّينِ الْجَدِيدِ أَصْحَابَ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ؟

س3: مَا هِيَ مَرَاسِمُ الِاحْتِفَالِ السَّنَوِيِّ الْكَبِيرِ بِالْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ؟ وَمَنِ الَّذِي يَشْهَدُهَا؟

س4: مَنِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْمَعْبَدِ وَلَمْ يَشْهَدُوا مَرَاسِمَ الِاحْتِفَالِ؟ وَلِمَاذَا؟

س5: لِمَاذَا لَمْ تَدُمْ دَعْوَةُ الْفِتْيَةِ طَوِيلًا؟ وَبِمَاذَا هَدَّدَهُمُ الْمَلِكُ الظَّالِمُ الْجَبَّارُ؟

س6: إِلَى أَيِّ مَكَانٍ ذَهَبَ الْفِتْيَةُ بَعْدَمَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يَذْهَبُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ؟

س7: لِمَاذَا ذَهَبَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ؟ وَمَنِ الَّذِي ذَهَبَ مَعَهُمْ؟ وَمَتَى وَصَلُوا إِلَيْهِ؟

س8: كَيْفَ حَرَّكَ خَبَرُ اخْتِفَاءِ الْفِتْيَةِ عُقُولَ كُلِّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِمَعْرِفَةِ رَبِّهَا وَمُرَاجَعَةِ دِينِهَا؟

س9: مَا الْمُدَّةُ الَّتِي قَضَاهَا الْفِتْيَةُ فِي الْكَهْفِ؟ وَكَيْفَ رَفَقَ اللهُ بِهِمْ وَنَشَرَ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ؟

س10: مَاذَا فَعَلَ الْفِتْيَةُ بَعْدَمَا اسْتَيْقَظُوا مِنْ نَوْمِهِمْ؟ وَكَيْفَ عَرَفَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ خَبَرَهُمْ؟

س11: لِمَاذَا بَعَثَ اللهُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ؟ وَمَا الَّذِي نَسْتَفِيدُهُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ؟

أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ:

س1: لِمَاذا حَارَبَ مَلِكُ «نَجْرَانَ» عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ؟ وَهَلِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا؟

س2: كَيْفَ خَدَعَ هَذَا الْمَلِكُ النَّاسَ وَجَعَلَهُمْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ؟

س3: مَاذَا طَلَبَ السَّاحِرُ مِنَ الْمَلِكِ؟ وَلِمَاذَا؟ وَهَلْ حَقَّقَ الْمَلِكُ لَهُ طَلَبَهُ؟

س4: لِمَاذَا أَرَادَ الرَّاهِبُ أَنْ يُعَلِّمَ الْغُلَامَ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ؟ وَهَلْ نَجَحَ فِي ذَلِكَ؟

س5: كَيْفَ كَانَ حَالُ الْغُلَامِ مَعَ الرَّاهِبِ وَالسَّاحِرِ؟ وَإِلَى أَيِّهِمَا كَانَ أَمْيَلَ؟

س6: مَا الْحَادِثَةُ الْفَاصِلَةُ فِي حَيَاةِ الْفَتَى، وَالَّتِي جَعَلَتْهُ يَخْتَارُ الرَّاهِبَ وَيَنْقَطِعُ عَنِ السَّاحِرِ نِهَائِيًّا؟

س7: مَا الَّذِي قَرَّرَهُ الْغُلَامُ بَعْدَمَا انْقَطَعَ عَنِ السَّاحِرِ؟ وَبِمَاذَا أَخْبَرَهُ الرَّاهِبُ وَأَوْصَاهُ؟

س8: كَيْفَ سَمِعَ مُسْتَشَارُ الْمَلِكِ بِالْغُلَامِ؟ وَمَا الَّذِي دَارَ بَيْنَهُمَا؟

س9: مَاذَا صَنَعَ الْمَلِكُ بِالْمُسْتَشَارِ حَتَّى يَعْرِفَ مَنْ عَلَّمَهُ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ؟ وَهَلْ عَرَفَ؟

س10: كَيْفَ قَتَلَ الْمَلِكُ الْغُلَامَ؟ وَمَا الَّذِي حَدَثَ بَعْدَ قَتْلِهِ ؟

س11: مَا الَّذِي فَعَلَهُ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ لِيَقْضِيَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ أَتْبَاعِ الْغُلَامِ الدَّاعِيَةِ؟

س12: فِي رَأْيِكَ مَنْ هُوَ الْفَائِزُ الْحَقِيقِيُّ: الْمَلِكُ الَّذِي قَتَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ قُتِلُوا شُهَدَاءَ؟

أَصْحَابُ الْفِيلِ:

س1: لِمَاذَا أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ جَيْشًا لِغَزْوِ بِلَادِ الْيَمَنِ؟ وَمَنِ الَّذِي كَانَ يَقُودُ هَذَا الْجَيْشَ؟

س2: كَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ مَلِكِ نَجْرَانَ؟ وَلِمَنِ اسْتَقَرَّ مُلْكُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَحْبَاشِ؟

س3: بِمَاذَا أَخْبَرَ أَبْرَهَةُ النَّجَاشِيَّ؟ وَهَلْ وَافَقَهُ النَّجَاشِيُّ عَلَى ذَلِكَ؟

س4: كَيْفَ بَنَى أَبْرَهَةُ كَنِيسَةَ الْقُلَّيْسِ؟ وَمَاذَا كَانَ هَدَفُهُ مِنْ وَرَائِهَا؟

س5: لِمَاذَا قَرَّرَ أَبْرَهَةُ غَزْوَ مَكَّةَ وَهَدْمَ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ؟ وَكَيْفَ اسْتَعَدَّ لِذَلِكَ؟

س6: هَلْ قَاتَلَ أَبْرَهَةَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ إِلَى مَكَّةَ؟ وَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟

س7: مَاذَا فَعَلَ جَيْشُ أَبْرَهَةَ عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مَشَارِفِ مَكَّةَ؟

س8: لِمَاذَا ذَهَبَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لِمُقَابَلَةِ أَبْرَهَةَ؟ وَكَيْفَ اسْتَقْبَلَهُ أَبْرَهَةُ؟

س9: مَا كَلِمَةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْمَشْهُورَةِ أَمَامَ أَبْرَهَةَ؟ وَهَلْ تُوَافِقُهُ عَلَيْهَا؟

س10: لِمَاذَا لَمْ يَتَقَدَّمِ الْفِيلُ تِجَاهَ الْكَعْبَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ جَلْدِهِ بِالسِّيَاطِ وَوَخْزِهِ بِالسِّهَامِ؟

س11: كَيْفَ أَهْلَكَ اللهُ أَبْرَهَةَ وَجَيْشَهُ؟ وَهَلْ مَاتُوا كُلُّهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ؟

س12: بِمَاذَا سَمَّى الْعَرَبُ الْعَامَ الَّذِي حَدَثَتْ فِيهِ هَذِهِ الْحَادِثَةُ؟ وَمَنِ الَّذِي وُلِدَ فِي هَذَا الْعَامِ؟